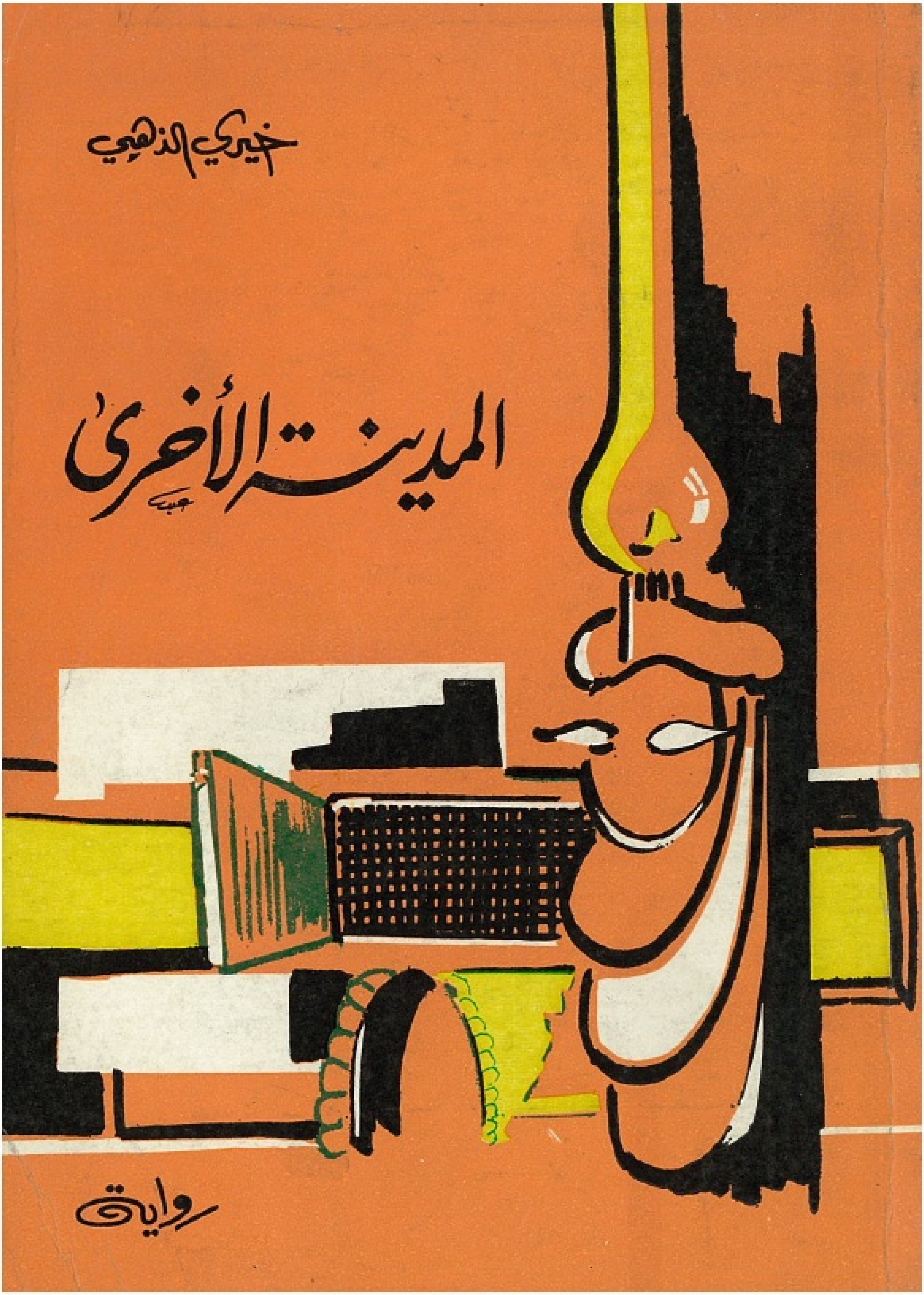

خيري الذهبي
المدينة الأخرى
رواية

خيري الذهبي

المدينة الأخرى

رواية

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
١٩٨٥

— ١ —

في البدء كانت كلمة الوزير . رسالة عادية كانت : ينقل المهندس أدهم الأدهمي إلى الادارة المركزية ، ويهيأ له المكان المناسب .

المكان المناسب ؟ وأي مكان يناسبك بعد مدينتك الجميلة ، عالية الجدران ، واسعة النوافذ ، بيضاء الأعتاب ؟ خضراء الحدائق ، وردية خدود الأطفال يا أدهم ؟

أي مكان يمكن أن يملأ فراغ القلب الذي طالما عمرته الأحلام والأفراح والأماني تشاد في خواء الصحراء ، ثم ينزع من كل هذا ليترك يباباً كأن لم يملأه شيء من قبل ؟

أي مكان مناسب وقد نزعت سنوات الشباب كلها لتطوى خرقة عتيقة يلقى بها أمام الباب ، فتصطدم بها قدم عابرة تبعدها حتى ممر الماشين ناسية أنها كانت الراية الجميلة تعلق عليها الأحلام والأفكار والنبوءات ، ناسية

أنها كانت الوشاح يغلف الوجه الدافىء الحنون الحبيب ، ولكن . هاهو الدور ينقضي ، وهاهي القلوب تدير ظهورها ، وهاهي العيون تستدير ، وهاهي سنوات الشباب تتحول إلى ممسحة على طريق عتيقة لا تعرف أي قدم ستمسح بها .

دخل إلى مكتبي وعبوس في العينين واحساس بالمسؤولية على الوجه. وضع المظروف أمامي على المكتب دون كثير كلام ، ثم ببساطة ، وكأنه يقوم بأمر اعتاده طويلاً جلس على الكرسي أمام المكتب . فوضع ساقاً فوق ساق . لم أفهم شيئاً ، وكدت أثور وأطلب الآذن ليطرده خارجاً ، فمتى كان يجرؤ على فعل هذا ؟ ولكن شيئاً في الوجه، وزمة في الشفاه، وطحالب شك تعبث في القلب منذ أيام جعلتني أفتح المظروف دون أن أثور على وقاحته . كان في المظروف وريقة صغيرة لم يكتب عليها إلا تلك الكلمات . التي لن أنساها أبداً ، تلك الكلمات التي ستظل محفورة في الذاكرة ربما إلى الأبد .

(ينقل المهندس أدهم الأدهمي إلى الادارة المركزية . يهيأ له المكان المناسب) .

المناسب ؟ ونظرت إلى الوجه المغلق الأصم مزموم الشفاه ، وفهمت كل شيء . هذا هو الأمر إذن . لقد انتهى دوري ، دور الأحلام والبناء والمدينة الجديدة والشوارع المستقيمة الطويلة ، والحدائق المدورة ، ورياض الأطفال ، ومسابح المتعبين ، ونوادي العشاق . انتهى كل هذا ليأتي هذا الوجه المغلق الأصم مزموم الشفاه ويحصل على كل شيء .

ضغطت الجرس أستدعي سائق سيارتي ، ولكن الوجه الأصم سارع بالقول :

لقد سحبت السيارة والسائق ، ولكني سأعيرك سيارتي تنقلك إلى العاصمة .

ارتددت إلى الكرسي مثقلاً بصفعة جملته الاخيرة . نظرت إلى الوجه الكريه يحصد فجأة كل ما بنيته في سنوات الشباب والحرارة والأمل ، وتحرك بركان صغير في القلب ، وهاج شيطان صغير ، ولكني أدركت ببساطة وهدوء ألا أمل . جمعت حوائج مكتبي وخرجت .

* * *

ـ ٢ ـ

كانت كلمة الوزير رسالة عادية : ينقل المهندس أدهم الأدهمي إلى الادارة المركزية . يهيأ له المكان المناسب .

أدهم الأدهمي . أدهم الأدهمي ، وتدفق الماء حنوناً رقيقاً إلى الصورة الجافة لتبعث فيها الحياة ، وتقدم أدهم وجهاً مسنوناً وخصلة سوداء على الجبين وشفتين رقيقتين متحديتين أبدا . قال :

ــ سأذهب إلى الصحراء .

ــ وتتركني ؟ .

ــ تعالي معي .

ــ لا أحب الصحراء ، لا أحتمل وحشتها .

ــ سأبني المدينة الأولى فيها . تعالي .

ــ والمسارح ، والمراقص ، وبوتيكات الملابس الأنيقة ؟ .

ـ مدينة جديدة بشوارع طويلة مستقيمة ورياض أطفال ، ونواد للعشاق ، ومسابح للباحثين عن الراحة بعد عناء العمل .

ـ وحتى تقوم هذه المدينة كيف نعيش ؟ .

ـ لن نعيش ، بل سنبني .

ـ وحين نبني هل نتوقف عن العيش ؟ .

ـ لن تحسي بالتوقف عن العيش ، فلذة البناء ستنسيك كل اللذات .

ـ لا أريد أن أنسى كل اللذات ، أريد أن أعيشها ، أن ألتذها .

كان في عينيه مسحة حلم بعيد كادت تجرني معها ، فأترك كل شيء وألحق به ، وكيف لا أفعل وهو أدهم ، ولكن المدينة ومغرياتها ومتعها ومباهجها ، حاراتها ، أصدقاءها ، سياراتها ، فرص الحياة الواسعة أتخلى عنها كلها لألحق به ؟

ـ تعالي ـ قال ثانية ـ أحتاج إليك هناك .

ـ بل ابق ـ سنبني مدينتنا ها هنا .

– بل في الصحراء ، في البكورة ، أريد مدينة على أرض لم يبن عليها أحد من قبل ، لا أريد لأحلام الأجداد أن تضايق سكانها ، لا أريد لأحزانهم وأحقادهم أن تنشر دخانها بين السكان فتؤثر على استقامة شوارعها . انك لا تعرفين ما للأحلام والذكريات العتيقة من أذى يا لميس . . .

انك لا تدركين أن لها ليلاً تستيقظ فيه فتصطدم بالجدران فتثير من الضجة والرعب ما يوقظ النائمين وربما تلبست بعضهم كما تتلبس الأرواح الشريرة من تريد من الناس فتحيلهم إلى مجانين قد يقتلون ويذبحون ويفسدون ويشرّون .

ابتعد قليلاً ومد يداً حنونة قوية ، وقال : تعالي . كانت العينان آمرتين وكان الوجه الحبيب منادياً وكدت أذعن . قال : تعالي .

ولكن أذرعا نملية صغيرة لا أعرف من أين انبثقت التفت حول أقدامي ، فأثقلتها و . . . . . — . . مضى .

نظرت إلى الورقة أمامي ثانية : هيئوا له المكان المناسب . المناسب ، وأي مكان يناسب باني مدينة الصحراء ، المهندس

الذي تخلى عن كل شيء ومضى إلى الصحراء ليضع الأساسات ويرفع الجدران ويقيم البناءات ، وينشر الحدائق ورياض الأطفال .

كانت مدينة جميلة – والحق يقال – تلك التي دخلتها في رحلتنا السياحية تلك ، كانت شيئاً مخالفاً لكل ما عرفنا من المدن بشوارعها الشطرنجية المستقيمة وأبنيتها البيضاء وحدائقها المدورة وأناسها المرحين . كيف استطاع أدهم أن يصنع كل هذا ؟ وأحسست بغصة صغيرة . كيف استطاع هذا ، ومتى ، ولم لم أكن إلى جواره ؟ .

بحثت عنه في لا مبالاة هادئة أولاً ، ثم بامعان ثم بالحاح ، ولكني عرفت أخيراً أنه غادر المدينة حين سمع عن رحلة الوزارة مدعياً مهمة يبتعد بها عن عيوننا جميعاً . أتراه كان يعرف بوجودي في الرحلة ، فابتعد ، أم أنه لم يعد يرغب في رؤية أحد ؟

هيئوا له المكان المناسب ، وأي مكان يناسب مهندساً قديماً خبيراً كأدهم إلا أن يكون معاون وزير . معاون وزير ؟ وتحرك شيء في القلب . لا . لا يمكن لهذا أن يحدث . معاون وزير كأدهم سيفسد أشياء كثيرة . سيكون

عقبة أمام مشاريع ونجاحات كثيرة . كيف يمكن لي ، لمالك ، للأصدقاء جميعاً أن يقبلوا به . كيف يقبلون أن يأتي من آخر الدنيا ، من الصحراء ، من سنوات الغيبة والاختفاء ليصبح رئيساً يفرض قيمه الصحراوية ، فيقلب الموازين كلها . لا ، قيمك مرفوضة يا أدهم . مرفوضة يا أدهم الأدهمي ..

نظرت من حولي ، إلى جدران المكتب المغلفة بالخشب الجوزي العتيق ، والستائر العسلية اللون تشكل من حولي عالماً خاصاً بنيته ، بنيته ؟ وهل من الضروري أن يكون البناء باليد ؟ تشكلت معه ، علقت عليه ذكرياتي ، خبراتي ، ضيقي بالعزوبة أحياناً ، فرحي بصفقة أنجزتها . هناك على تلك العقدة الخشبية في الجدار المواجه كم تعلقت عيناي ساعات أستقرىء العالم من خلالها .

ولكن . أدهم . ما الذي قفز بك من عالم الذكرى لتبعث أمامي حياً تسعى . كنت قد شكلت عالمي وارتحت . عالمي الخاص ، صداقاتي ، علاقاتي ، ص...... صفقاتي ، وكل شيء يسير سيراً حسناً والحمد لله ، فما الذي ستصنعه الآن يا أدهم ؟ .

نقرة خفيفة على الباب ودخل مالك ما يبر العقود بجرمه الضخم .

قال :

— سيتعبنا كثيراً يا ايس .

وهززت برأسي أوافقه ، فلقد أدركت ما يعني .

— وسأحاول العمل لدى الوزير لنقله إلى وزارة أخرى.

وتابعت هز رأسي في شرود .

— يجب العمل من أجل ذلك .

ولما لم أجب ، فقد تابع :

— ولكن حلماً سرياً قد داعبني منذ قليل .

ونظرت إليه مستفهمة .

— تعرفين . بعض الشكوك بدأت تتردد حول مجموعتنا الهندسية بعد مشروعها الأخير .

وامتطت شفتاي في مرارة ، فلقد كاد المشروع الأخير أن يفقدنا كل شيء . وكل هذا كان بسبب طمع مالك ، فقد كان يمكن لنا أن نربح الكثير من المشروع ، ولكنه لم يرض بالكثير ، بل أراد الأكثر ، ولكن ما نفع العتاب الآن ؟

— ونحن نحتاج إلى اسم نظيف ينضم إليها .

وحشرجت :

— ماذا تعني ؟

— أدهم .

— غير ممكن .

— ولم لا ؟

— أعرفه .

— وأنا أعرفه أيضاً ، ولكن . . . .

— اسمع يا مالك . لتكن واقعياً . أتظن من يمضي إلى الصحراء متخلياً عن مغريات المدينة ومباهجها وثرواتها المتوقعة من هذه الصفقة أو تلك ، يمضي لا لشيء إلا ليحقق حلماً استولى عليه أثناء فترة الدراسة . أتظن شخصاً كهذا يتخلى عن كل بناء الماضي لينضم إلينا .

— اسمعي يا لميس . أنا أعرف عن صداقتكما القديمة .

— كان ذلك فيما مضى .

— ولكنا في حاجة إليها الآن .

— لا .

وقمت في حزم ، وتخاذلت كتل الشحم في وجهه

الملي ء ، وارتدت البسمة العريضة الممتدة من الأذن إلى الأذن لتختفي .

وقال :

– لا تغضبي ، فالأمر لك ، ولكن . لنفكر قليلاً .

قال جملته الأخيرة وهو يضع كفه على الباب ليبتعد .

أدهم . أدهم . ما الذي قفز بك من غياهب الذاكرة لتصبح العذاب والصليب والذكرى ، وقفزت سنوات الجامعة إلى مقدمة الذاكرة ، سنوات اليفاعة والحلم ، السنوات التي اكتشفت فيها أني امرأة . امرأة ؟

ورنت ضحكة خفيفة في داخلي . أرجعت الكرسي الدوار إلى الوراء قليلاً . ومن الحقيبة أخرجت مرآتي الصغيرة أتأمل تلك المرأة. غضون تحت العينين ، وشيب في الفودين أخفاه بمهارة الحلاق ، وارتخاء في عضلات الفم جعلها تميل إلى أسفل الجانبين مما أعطاها مظهر مرارة دائم . ايه . أين أنت يا لميس ؟ وامتدت آهة دافئة من الأعماق وأنا أعيد النظر في المرآة . أتراه يذكرني بعد كل تلك السنوات . يذكرني ؟ يجب أن يذكرني . ها أنا أذكره بعد كل تلك السنوات ، فلم لا يذكرني أيضاً .

طرق الباب ، ودخل الآذن يحمل أوراق الدوام لأوقعها . أخذت أدققها دائرة ، دائرة ومديرية مديرية . ترى أين سيتم تعيينه ؟ لا بد أن أسأل الوزير في ذلك . مهندس قديم وخبرة قديمة . هل أمضي إلى الوزير لأسأله .

أسأله ؟ لا . لن أسمح بجعله رئيساً لي أبداً . سيكون في هذا دمار لأشياء كثيرة . لتقاليد كثيرة ، بل ، لم لا أقولها بصراحة ، لأسر كثيرة .

ترى كيف يبدو الآن ؟ أتراه ما زال الفتى النضر الرشيق ذا العينين السوداوين المتحديتين أبداً ؟ أم أن الزمان قد عبث به كما عبث بالجميع .

وكانت المفاجأة حقيقية حين وصل قراره إلى في مديرية الشؤون الادارية رسمياً قبيل نهاية الدوام . فمن كان يصدق ذلك . أدهم الأدهمي بطل مدينة الصحراء ، ومهندس حلم شبابنا كله . أدهم الأدهمي الذي تحدى كل رغباتنا في الرفاهية والهدوء ، ومضى ليحقق حلماً ، ويبني مدينة هناك في الصحراء . أدهم الأدهمي الذي كان يصيبنا بالغصة حين كان يذكر أسمه أمامنا . أدهم الأدهمي يؤتى به مهندساً منفياً عن كل عمل ليلقى به في مديرية

الدراسات حيث لا دراسات ، فالكل يعرف أن دراسات مشاريع الوزارة لا تتم في الوزارة .

وفهمت الاشارة . أدهم الأدهمي مغضوب عليه إذن ، وهاهي فرصتك تحين يا لميس .

كتبت القرار ، وأرسلته مغلفاً بالاشارات إلى ملك في مديرية الدراسات لتفهم .

وفهمت .

هاهاهاه . اني أنتظرك ياأدهم . أنتظر قدومك المحتج . أنتظر رؤيتك الغاضبة الناقمة ، الطالبة تعديلاً لوضعك واحقاقاً لحقك ، واستعددت للمنازلة والمفاوضة .

وهتف مالك في خبث :

ـــ هه . ما رأيك . ألن يلين . ؟

وضحكت ، فمن يدري ، فها نحن سنلتقي أخيراً يا أدهم الأدهمي .

* * *

— ٣ —

لم يكن أمامي كبير خيار . . كان علي إما أن أتخلى عن كل شيء ، وإما أن أقبل أن أنزل إلى الوزارة .

وهبطت . ها هي أبواب الوزارة السود الحديدية الكبيرة . أشجار جرد وأوراق صفر ، وكثير من اعلانات الوفاة . توقفت قليلاً أقرؤها : أصدقاء قدماء ، زملاء ، معارف ، أناس لم أسمع بأسمهم من قبل ، هاهم قد رحلوا ، وهاهي أوراق بيض صغيرة تعلن لاصدقائهم أنهم رحلوا . متى سينضم اسمك إلى هذه الأسماء يا أدهم . ؟

وتحركت عضلة في الصدر خائفة ، وسمعت تمتمة تقول : لا سمح الله ، بعيد الشر ، (بكير) واندفعت سيارة مسرعة عبر الباب الحديدي وتبعتها . كان يجب أن ألقى أحداً ما . كان يجب أن أعرف مكاني في هذه الوزارة الكبيرة الواسعة . تأملت عجائز الأشجار وعرفتها واحدة

واحدة ، كانت قد كبرت وشاخت ، وأنت ؟ لا بد أنك قد شخت أيضاً يا أدهم ، ولكن . . . . . لِمَ لم يخطر هذا السؤال على بالي من قبل ؟

وتلمست أصابعي لحيتي تعبث بها في هدوء ، وتحركت إلى الداخل ، ولكن رجلاً في ثياب كاكية مما يلبس الأذنة صرخ في وقاحة :

ــ إلى أين يا أستاذ ؟

نظرت إليه طويلاً . لا أفهم ما يريد ، ووجدتني دون أن أريد أقول : أريد مقابلة الوزير .

ــ ما الاسم ؟

نظرت إليه . أتراه لا يعرف اسمي فعلاً ، واندفع شابان عجلان اصطدم بي أحدهما ، فالتفت يعتذر بسرعة دون أن يتعرف إلي ، واندفعت مرارة صغيرة إلى الحلق . ها أنت تعود إلى وزارتك ثانية مجهولاً منسياً ، محروماً من مدينتك الشباب ، مرفوضاً من يفاعتك الحالم ، من سنوات البناء ، وشق الشوارع ، وانشاء الحدائق ورياض الأطفال ، وكرر الصوت الأجش في بلادة وهو يعبث بأوراق أمامه .

— الاسم ؟

وقلت في هدوء متصوراً أنه سيقفز لدى سماعه الاسم .

— أدهم الأدهمي .

وتابع تقاليب الأوراق دون أن يفهم شيئاً من الاسم .

— أدهم الأدهمي . أدهم الأدهمي .

وضع الورقة الأخيرة .

— الاسم غير موجود . ألديك موعد معه . ؟ .

نظرت إلى وجهه .

— لا .

— فكيف تريد أن تلقاه إذن ؟ .

— لا أريد أن ألقاه . من قال اني أريد أن ألقاه !

— أنت . ألم تقل ذلك الآن ؟

— اسمع . . . (وبصعوبة أخذت الكلمات تتسلل من حلقي) أنا منقول إلى الوزارة ، ولا بد أن أحداً ما يريد أن يلقاني .

كرر تقنيب الأوراق وهو يتمتم .

— أدهم الأدهمي — أدهم الأدهمي — طيب . لم لا ترى الشؤون الأدارية ؟ .

ـ أتظن ذلك ضرورياً ؟

ـ ومن سيدلك على مكان عملك إذن ؟ اسمع ـ سأتصل بمكتب سيادة الوزير .

ـ لا . (وأمسك الهاتف وتابعت) لا . لا ضرورة .

ولكنه كان قد طلب رقماً ، وعادت عيناي تتأملان الباحة الواسعة بأشجارها العتيقة ، وسمعت الاسم ثانية .

ـ نعم . أدهم الأدهمي . طيب . طيب .

والتفت إلي :

ـ سيلقاك الوزير حالاً تفضل .

ـ أهو من قال ذلك . ؟

ـ نعم . ألا تريد لقاءه ؟

قال جملته الأخيرة في اغراء مدل . ألقاه ؟ ألقاه . ولم لا ؟

ـ لا بأس .

ونظر إلى جوابي يستنكر جحودي . أهكذا تتقبل خبر استقبال الوزير لك .

ـ تعرف مكتبه ؟

— أعرفه . هل تغير مكانه ؟

— لا . أبداً . إنه حيث هو منذ الأزل .

ورنت جملته غريبة في سمعي . منذ الأزل ، ولكن ضحكة ساخرة هسهست في الذهن . منذ الأزل ؟ من يدري وربما إلى الأبد .

من وراء مكتبه العالي الضخم المحتشد بأجهزة الهاتف والملفات .

قال :

— أهلاً يا أدهم . تفضل .

وجلست ، وتابع :

— أنا أعرف أنك قادم لتحتج

ورفعت رأسي أحاول الاعتراض على جملته ، فلم أكن أفكر في الاحتجاج أبداً ، ولكنه تابع دون أن يترك لي فرصة للاعتراض .

— ولكن كل الاحتجاجات مرفوضة .

وأردت القيام ، ولكنه تابع :

— لا ، بل ابق ، لقد نفختك الكبرياء يا أدهم . ظننت أنك أنت من بنيت ، تخيلت أنك أنت من رفع

المدينة وشق شوارعها وأنشأ حدائقها ، ولكنك على خطأ كدأبك دائماً ، ولكن . لا بأس ، فالأنسان خطاء (وقال خطاء بتأكيد كمن يضع خطين تحت كلمة ، وكان واضحاً أنه لا يريد لي أن أتكلم . كان يريد أن يتكلم فقط دون أن يسمع ، وتابع)

ظننت أن لك قوة تبني بها وتنشيء ، تقيم أحلاماً ، وتحيي خيالات للروح ولكنك نسيت ، وهذه هي خطيئتك . إنك دون أن نريد لا شيء يا أدهم (وهمهمت الروح ، ولكن . ماذا عن ريادتي ، ماذا عن عبقريتي الهندسية كما دعوتموها دائماً ، ماذا عن بطل الصحراء ومبدع المدن ، وحال مشاكل الزحام والضوضاء والوساخة والتلوث ؟) أنسيت من أرسل بك إلى هناك ، أنسيت من شملك بحمايته ، أنسيت من دفع عنك رياح الخماسين وقر ليالي الصحراء ، أنسيت من كف عنك أذى الضباع وبنات آوى ، أنسيت من أبعد عنك أعشاب البوادي المتسللة ؟ لا ، يبدو أنك نسيت فانتفخت بالغرور ، ورأيت أنك أنت أنت ، ولذا فها نحن حينما عصيت وتجبرت نعيدك إلى الأرض ، نعيدك إلى حيث بدأت لتعرف من يرفع ومن يضع (وحاولت أن

أفتح فمي لأرد ، ولكنه تابع) ها نحن نلتقي ثانية يا أدهم . منذ متى لم نلتق (وأردت أن أقول : منذ سنوات كثيرة ، ولكنه لم يكن ينتظر جواباً أو تعليقاً مني حين قال) ها أنت تعود إلى أرض الوزارة ، تعود إليها كما بدأت ، صفراً من كل شيء ، ها أنت تعود لتكافح بادئاً من الصفر . انزل إلى الوزارة ، وأرني ما ستصنع دون حمايتنا . انزل وكافح ، وسنرى ما ستصنع (وقمت) انزل يا أدهم ، فبالعذاب ستبدأ ، وبالمعاناة ستعمل ، وبالتعب ستحصل على قوت يومك (واتجهت إلى الباب) انتظر . لن تمضي قبل أن أقول ما لدي . عازباً لا تزال هه ؟ تظن أنك دون مسؤوليات أو أطفال تستطيع الاحتمال ؟ ولكنك خاطىء ، فها هي السن تمضي بك ، وها هو الشيب في فوديك .

(ووصلت إلى الباب) ولكني لن أنسى صداقتنا القديمة ، لن أنسى رفقة الدراسة وسأظل أعطف عليك . ان احتجت إلى شيء ، فلا تتردد في طلبه (وأحنيت رأسي دون قول شيء) ستجد أوراق مباشرتك عند مدير مكتبي . سنراقبك ، وسنرى أي انسان ستكون ، ولكن . لا تخف كثيراً ، فنحن لا ننسى أصدقاءنا القدامى وان أساؤوا .

امض يا أدهم . امض ، وبرهن على إخلاصك وطاعتك وربما رأينا مكافاتك ، ومن يدري فربما أعدناك إلى مدينتك القديمة (وهب فرح في القلب حين نظرت إليه في لهفة) نعم ربما قررنا ذلك ، ولكن عليك أن تبرهن على طيبة واخلاص وطاعة ، وإنا لمنتظرون .

أغلقت الباب من خلفي ، ومضيت ، واستقبلني مدير مكتبه بابتسامة عريضة ، ومد يده يصافحني ، واندفعت كلمات وكلمات وكلمات ، وعرفت أن علي أن أبدأ من جديد ، ومن يدري ربما عدت إلى مدينتي القديمة ، المدينة التي زرعت فيها شبابي ، ووهبتها كثيراً من الأنات والفرحات والأحلام :

* * *

— ٤ —

هتف مالك في اليوم التالي ساخراً :

— هل داوم صديقنا ؟

ولم تكن أوراق الدوام قد وصلت ، فقلت :

— لا أعرف ، ولكنه يستطيع استهلاك إجازاته الادارية لهذا العام بل وما قبله ان لديه رصيداً كبيراً من الاجازات الادارية .

— ولديه التقارير الطبية أيضاً .

— وسيسعى في هذه الاثناء ليعدل وضعه .

ووضعت السماعة ، وتابعت لنفسي : ولكنه سيطرق الأبواب وسأراك أخيراً وأنت ترجو رفع الاهانة عنك بأدهم . ستجلس أمامي هناك ، وستشرب فنجان قهوتك ، وستذكرني بأيامي الماضية . تذكرني ؟ ألا بد من ذلك ؟ ألا بد من تذكيري باحجامي عن المضي معك إلى مدينة

الحلم ؟ ألا بد من تذكر أن مجموعتنا كلها رفضت هذا الغباء . غباء ؟ أفليس غباء إذن ما فعلت ؟ ما الذي أفدته من كل هذه السنوات أضعتها من عمرك ؟ مدينة ؟ هه .

رن الهاتف ، وكانت المكالمة هذه المرة من ملك في مديرية الدراسات . كانت مكالمتها مختصرة .

— لقد وصل .

وصل ؟ همست وأنا أضع السماعة . هل سيقبل الوضع الجديد ؟ ألن يناقشه ؟ ألن يحتج ؟ ألن يصرخ ؟ ألن يناطح السماء ؟ وانتظرت . كنت أوقع أوراق الدوام ، الاجازات ، التقارير الطبية ، التعيينات ، التنقلات . كنت أقوم بعملي شاردة الذهن أتوقع طرقه على الباب ودخولاً عاصفاً لأدهم يحتج على ما مورس عليه ، ولكن النهار انقضى ، ولم يظهر له أثر

كنت أتحرق للمضي إلى غرفته أستكشف ما آل إليه ، ولكني بقدرة قادر استطعت كبح نفسي وانتظار ما يجد ولكن شيئاً لم يجد ! وقرب نهاية اليوم لم أستطع الاستمرار في المقاومة فاتصلت بملك .

ـ هه . كيف الحال ؟

ـ على أحسن ما يرام

ـ أما من مشاكل ؟

ـ ولم تكون هناك مشاكل ؟

ـ هه . عظيم

صمت قليلاً أفكر في سبب لاستمرار الحديث

ـ وصديقنا هل رجع ؟

ـ رجع ؟ وهل مضى حتى يرجع ؟

وقالت هامسة :

ـ رجع ؟ وهل مضى حتى يرجع ؟

ـ ماذا ؟ هل تعنين أنه لم يغادر غرفته منذ قدم ؟

ـ لم يتحرك من وراء مكتبه . الكتاب في يده وهو غارق فيه .

وضعت السماعة ، واستندت إلى ظهر مقعدي أفكر : ما الذي جد في شخصية أدهم حتى جعلته انصياعياً لا يقاوم . أتراه رضي بالهزيمة وأدرك الا فائدة من المقاومة ، أم أنه يحضر لمعركة أخرى ، وما نراه الآن ليس إلا الكمون قبل الوثبة

ايه يا أدهم، ماالذي خرج بك من الماضي لتدخل في الحاضر بهذه القسوة وتثير الاضطراب في حياتنا جميعاً .

وجاء الآذن يلملم فناجين القهوة وكؤوس الشاي ونفاضات السكائر ، ونظرت إلى الساعة ، وأدركت ان الدوام قد انقضى ، وفجأة التمعت الفكرة . يجب أن أراه ولو بالمصادفة . يجب ، وحملت حقيبتي ، وأقفلت المكتب بسرعة ، ومضيت .

باحة الوزارة تموج بالموظفين والموظفات ، هذا يسعى إلى سيارته الخاصة ، وهذا يتشاغل منتظراً خروج صديقه بسيارته ليصحبه فيها ، أما الباقون من صغار الموظفين والموظفات ، فقد اتجهوا إلى ميكرو باص الوزارة يحملهم إلى بيوتهم .

جلت بعيني في الباحة أبحث واقفة قرب الباب ، ولكني لم أعثر له على أثر ، ورنت ضحكة ساخرة في أعماقي ، وكيف ستعرفينه بعد كل هذه السنين؟ كيف ستعرفين ما تغير فيه ، لباسه ، سمنته ، طريقة سيره ، بياض شعره ، وربما صلعه ، ولكن . لا سأعرفه . أنه أدهم .

جلت بعيني ثانية ، وأخذت السيارات الخاصة تنساب أمامي ، وأخذ البعض يحييني ، والآخر يتجاهلني ، وانتظرت أن أراه بينهم . ترى أية سيارة يركب ؟ لا بد أنها مرسيدس بقيت له من أيام المدينة ، لا ربما كان لا يحب المظاهر المبالغ فيها فاكتفى ببيجو .

وتوقفت عدة سيارات تعرض توصيلي متخيلين أن بسيارتي عطلاً ، ولكني شكرتهم في هدوء أنتظر أن أراه ، ومضت السيارات جميعاً ، ولم يكن بينهم .

اتجهت إلى سيارتي أشغلها بينما انطلق الميكرو باص بركابه ومرقت في ذهني سريعة . أيعقل أن يكون بين ركاب الميكرو باص ؟ ولكني سخرت من الفكرة بسرعة ، وأعملت السيارة ، ومضيت .

* * *

– ٥ –

كانت القهوة ما أحتاج إليه لنفض كثير من الأحلام عن رأسي المتعب . صببت الفنجان الأول ، وعلى صفحته كرت الأحلام من جديد ، رأيت المدينة المنتزعة من القلب ، رأيت البحيرة الجميلة تتهادى بلا شطآن ، رأيت قوارب الليل تتسلل إليها حاملة صيادين وعشاقاً ، متنزهين ومتعبين وحالمين ، رأيت الشوارع النظيفة تستسلم تحت أقدام البولدوزرات والجرارات والمداحي، رأيت النوادي ترعى شجيراتها لتحولها إلى حدائق ، رأيت الحفر في الأرض حمراء التربة تتحول إلى مسابح ، رأيت كتل الاسمنت المسلح والحديد تتحول إلى مدارس ورياض أطفال ، رأيت البسمات تنتش على وجوه الأطفال ، رأيت الأكف الناعمة تمسح قطرات العرق بينما تتلقف همسات الحب ، رأيت ، ورأيت وكبرت الغصة . لماذا انتزعوني من كل هذا ؟ لماذا أخرجوني من جنة صنعتها ووهبتها الكثير من الشباب

والأحلام ؟ من أعطاهم هذا الحق ، وكيف ؟ ولماذا ؟ وكبرت الغصة وكان لا بد أن تبتلع ، شربت الفنجان الأول ، وانتزعت الكتاب من صمته ، وحاولت أن أغرق في حوار طويل معه ، ولكن الثرثرة والهمهمة والأسئلة الفجة والفظة ومدعية التعاطف كانت تلح محاولة الدخول إلى عالم الروح المتأبي ، واعتصمت بالكتاب فما يدريك من المكلف فيهم برفع أخباري إليه ، وأنا أريد العودة إلى هناك ، ولكن كيف ؟ وهم قد قرروا عقوبتي ، ولكن . . . . . حتى متى ستستمر هذه العقوبة . متى ستنقضي ، ولكن هل ستنقضي أصلاً ؟ كان وقع السؤال الأخير مؤلماً ، فأحد لا يعرف ان كانت ستنقضي أصلاً ، أم أنها ستستمر إلى الأبد ، ورن الهاتف ، ورأيت ملك بجانب عيني تهمس في الهاتف . حاولت أن أستمع إليها . فلم أستطع . كانت تتكتم وتهمس محاولة ألا أسمع . أهو تقريرها اليومي ؟ كانت عيناها المختفيتان داخل اطار من الظل الأزرق الفاقع تبدوان مخيفتين ، فجوتان ضمن قناع الكريم الأبيض البارد الذي غطى وجهها ، وكان شعرها

الأشقر المصبوغ اشارة بعيدة إلى ملك القديمة ، ملك التي كنا ندعوها الـ (بيبي دول) ولكن . وا أسفاه لم يتبق من هذه البيبي دول الا قناع أبيض وحفرتان زرقاوان وشعر مصبوغ وروح بلون الصقيع .

حاولت أن تتلطف عند استقبالها لي ، ولكن الكلمات كانت ترتد مصحوبة بطنين خاص أشبه بانزلاق الأصابع على جدار زجاجي . كان الجدار قد أحاط بها منذ سنين وسنين ، لا بد أنها بنته تحتمي به من مواجهة قسوة الأيام وحيدة ، ولكنه لم يلبث أن تمترس وتجسد ليصبح جلداً آخر وقف حائلاً بينها وبين كل حياة حارة قالت :

ــ لا لم يغادر مكتبه أبداً .

وعرفت . أيقنت . تأكدت . انها تقدم تقريرها اليومي ، وعرفت أنه يستمع الآن ، وأدركت أني ان أردت العودة فعلي أن أبدي من حسن السلوك ما يجعلهم يرضون . يرضون ؟ ولكن رضاهم فظيع . صفقات مشبوهة ، وكان لا بد من أن أرفض . موظفون غير أكفاء والمدينة غضة لا تحتمل الفساد وكان لا بد من أن أرفض ، ولكن . أدهم .. أدهم . أتريد العودة فعلاً ؟ وشهقت . ومثلي يسأل

هذا السؤال ؟ أهناك من يرفض حصاد زرع شبابه ؟ أهناك من يستطيع الخروج من جلد أحلام أحلى سنوات العمر ؟ أهناك من . . . ولكن تذكر ان لهم شروطاً هل تستطيع الانصياع لها ؟ آه . آه شروط وشروط ، ولكنه لم يذكر شروطاً . كل ما قال انه يريد حسن سلوك مني ها هنا في الوزارة ، وسألتزم بحسن السلوك ، وسنرى ان كان يستطيع العودة بي إلى مدينتي تلك .

بدأت أعتاد الجو الجديد ، وأخذت آلف القدوم الصباحي وخروج المهندسين إلى مكاتبهم الخاصة ومشاريعهم الخاصة بعد التوقيع على أوراق الدوام الصباحي ، ولكني أعرف أنه يراقبني ، فها هي ملك لا تغادر مكتبها. اني أرى عينيها تراقباني سراً . لا بد أنها ترصد حركاتي كلها ، ولكن . لا . لن أمكنها من كثير من هذه الحركات . سأخفف منها . لن ترى مني إلا رأساً غارقاً في كتاب وأصابع تقلب الصفحات . هل سيكفيهم هذا ؟ ولكن . ألن يعتبروه كموناً أو إعداداً لشيء آخر. ولكن. ماذا أفعل ؟ أريد العودة ، ويجب أن أعود . لا مقام لي في هذه المدينة .

يجب أن أعود إلى هناك ، إلى سنوات الشباب وجدران الحلم ، والبحيرة الغافية تحت القمر . . .

رن الهاتف ، وسمعت الحوار الهامس . لماذا الهامس . لماذا تهمس ، ولم تحرص على ألا أسمع لو لم يكن هناك شيء يعنيني ؟ أيعقل أن يكون الوزير مهتماً بأمري للدرجة أن يصر على أن يسمع عني تقريراً يومياً . ما يدريك ؟ ربما أنبه ضميره فهو يريد لك العودة إلى هناك ، ولكن . . . . . بعد أن يتأكد من أنك لن تخالف من جديد ، ولكن . . . هل خالفت أصلاً ؟ لا . لا تتساءل يا أدهم . ان لهم آراءهم وخصوصياتهم ، ولا يجب أن تسأل عن صحتها من خطئها ، فهذا ليس من شأنك . انك ان أكثرت من الأسئلة لججت ، ومن لج كفر ، ومن كفر طرد ، وأحسست هبة ندم تعتصرني ، وفرحت أنهم لم يستطيعوا بعد الوصول إلى عالم الأفكار والا لعرفوا ما أفكر فيه ، وربما طردت حينئذ إلى الأبد .

فتح الباب ، ولمحتها ، وشهقت . هل هذا معقول كيف تخرج من ماض فعلت الكثير لأنساه . كيف تخرج . ولم ؟ سمعت وقع أقدامها تخترق الغرفة ، ثم تتباطأ أمامي

قليلاً كمن يتوقع نظرة فسلاماً ، ولكن رأسي العنيد تشبث بالكتاب . يحتمي به، وابتعدت الأقدام ، وسمعت التحيات ، والسلامات ونكات ومزاحاً وفرحاً . . لا بأس لك أن تفرحي يا لميس ، فها هو يوم نصرك يتحقق . ها أنت تريني مطروداً مخذولاً مبعداً من جنة شبابي ، مرمياً في قاع الوزارة ، منفياً من كل سعادة نسجتها خيطاً خيطاً ولبنة لبنة .. لا بد أنك تتفرسين في الآن تبحثين عن عيني لتريني شماتتك وانتصارك ، لا بد أنك تريدين أن تقولي . انظر. أرأيت . ها هو بناء شبابك الذي حذرتك من عبثيته يتهاوى . انظر ها أنت ترى أن هناك طريقاً واحدة للوصول إلى الجنة العليا . انه طريق الرضا بما قدر والاستسلام له والعمل من خلاله

ولكن . لا يا لميس . لن أمكنك من الفرح . لن أمكنك من الشماتة. سأعود ، وسترين أن الجنة يمكن أن تصنع باليد ، يمكن أن تصنع بالأحلام تبذر جذورها في الأرض فتنتش . يمكن للبيتون والبلوك أن يجذر ويجذع ويفرع إذا سقي بسنوات الشباب ودخان الروح المحترقة . يمكن ... وانطلقت قهقهة صارخة ماجنة لم أكن أتوقعها من لميس ،

وفهمت . انها مصرة على التفاتي . ولكن ما يدريك . ربما كان هو من أرسلها . انها التجربة الجديدة . يجب الا تسقط يا أدهم . يجب أن تعرف كيف تصمد ، ولكن . ما الذي أتى بها إلى هذه الوزارة . آه . لعلها لا تزال تعمل فيها . وانقطع الصوت والضحك والمزاح ، وسمعت وقع الأقدام يقترب ، وسمعتها تتوقف أمام مكتبي وتشبثت بالكتاب ، ولكن كفا امتدت أمامي تخرجني من اسار الكتاب . كان يجب أن أنظر ، والتقمت العيون ، ولم يعد الهروب ممكناً .

قالت :

— أنا لميس .

وكأني كنت أحتاج إلى من يذكرني بأنها عذاب الروح . قالت : أنا لميس ، وكأنها كانت تحتاج إلى أن تذكرني بسقوطي من مدينتي الحلم إلى أرض وزارتها عارياً من رياش الشباب وأجنحة الفرح . قالت :

— نحن في الوزارة . . . سوية .

وفهمت . انها تعني . لقد عدت كسيفاً حسيراً

مطروداً من جنتك ساقطاً إلي ، وشدت الأصابع على يدي بقوة وهي تقول :

– وسنلتقي كثيراً .

ووجدتني أهمهم :

– طبعاً . طبعاً .

واستدارت تبتعد وهي تضرب الأرض بقدميها في قوة ، وأنت الروح في ألم ، وانثالت سنوات وسنوات تختلط بأرقام الكتاب أمامي ، وقالت :

– أنت حالم كبير يا أدهم ، وربما كان هذا سحرك الخاص . كان يجب لأملك أن تضع قليلاً من الوحل في حذائك حتى لا تطير .

وضحكت ، فقد كانت صورة جميلة .

– ولكن الحياة شيء آخر يا أدهم . لو أصررت على أن تكيف العالم مع حلمك فسيطحنك العالم ، كل الأطفال يكبرون ويكيفون أحلامهم مع العالم ، فلم تصر على تكييف العالم مع حلمك .

واستندت إلى ضغطة كفها على خصري ، وأخذت

أصف لها المدينة التي أريد ، الأبنية الصغيرة واسعة النوافذ المكتظة بأصائص الورد ووجوه العاشقين ، الشوارع الطويلة النظيفة البيضاء المغطاة بالخضرة والشجر والنوادي .

وقالت تقاطعني :

– ولكن لم لا تحاول بناء هذه المدينة هنا ؛ في العاصمة ،

وحدثتها عن أرواح الأجداد الهائمة في الحارات القديمة ، أجداد قاسوا الجوع والقهر والظلم والقتل والشقاق ، أجداد هامات يستيقظون في بهمة الليل فينوحون من شقوق الأبواب يوقظون الأحفاد من سباتهم ويطالبون بدم وثأر وانتقام لن يقع ، والأجداد المساكين يعرفون أنهم لن يستطيعوا نقل ما يريدون إلى الأحفاد ، ولكنهم يستطيعون تعكير أحلامهم الليلية فقط ، يستطيعون بث الذعر في الأطفال . الا ترين إلى التجاعيد على وجه الأطفال . انها بصمات روح الأجداد القاسية . أريد أن أبنيها بعيدة عن أرواح الأجداد ، أريد مدينة لم يعمرها أجداد ولا أحقاد ولا شقاقات ، ولا صراع ضرائر . أريدها مدينة عذراء أكون عريسها الأول .

وضحكت في مجون وقالت :

— شهريار جديد ، ولكن دون سياف ومملكة .
أليس كذلك ؟

وقامت ، فتبعتها مبتعدين عن النهر شبه الجاف المخترق بحجارة خضراء غطاها الأسن والاشنات .

كانت لميس الحب الأول ، ولكن . أهناك حقاً حب أول ؟

كانت لميس حباً وشهوة وعذاباً ، كانت رغبة وأمنية وصراعاً . كانت لغز الأنثى تحبه لتتمنى أن تذيبه فيك ، وكانت الخصم يحب أن تنتصر عليه ، وكانت الصديق تتمنى أن تشاركه سويداء قلبك وتخاف أن يعتصر قلبك بأصابعه القاسية حتى الموت . كانت حواء ، وكانت المرآة ، وكانت الخوف .

قالت :

— أريد بيتاً صغيراً لا أتعب في العناية به .

وحدثتها عن كرهي البيوت الجديدة المسورة بجيران يبثون أحزانهم وغضبهم إليك عبر الجدران الرقيقة . حدثتها عن بيتي القديم الموصول مع الريح والشمس .

حدثتها عن باحة كبيرة تتوسطها بحيرة وتغلفها شجيرات رقيقة تبعث الياسمين في القلب . حدثتها عن العصافير ترفرف وتنزل فتغتسل في البحرة ، ثم تطير تجفف ريشها على شجرة المسك ، وضحكت في لا مبالاة ، وقالت :

– كان هذا ممكناً فيما مضى ، حين كانت المرأة حبيسة البيت ، أما الآن فأنا لا أستطيع العيش في بيت كهذا .

ووافقتها ، وفجأة بدا كأن الحلم يمكن أن يتحقق حين دعوا لبناء مدينة الصحراء الأولى ، واندفعت ، واقتنعوا بحلمي ، ودعوتها لتمضي معي ، دعوتها لتكون إلى جواري في بناء الحلم ، ولكن شيئاً في عينيها كان يسخر ، وقالت :

– لا أستطيع فراق الأضواء وهدير السيارات ، وجمال الملابس المعلقة في البوتيكات .

ومضيت ، وبنيت ، ولكن . . . . ها أنت تعود إلى أرض الوزارة لتجدها في انتظارك مسلحة بخبرة الأيام وشماتة الانتصار على الانتظار و . . . . ورن الهاتف ثانية ، والتفت مكرهاً أمام رنينه الحاد ورأيت الجد والخوف على وجه ملك ، وسمعتها تقول :

ـ طبعاً . طبعاً يا سيدي . انه موجود

وفهمت أني المعني حين وضعت كفها على سماعة الهاتف ، وأشارت إلى هاتفي لأرفع سماعته ، وحين رفعتها وضعت سماعتها ، وسمعت الوزير على الجانب الآخر قال :

ـ لقد أشفقنا على عزلتك واحترمنا خدمتك .

وقلت في لهفة :

ـ هل سأعود ؟ .

ـ وأجاب باتراً :

ـ لا ليس بعد ، ولكنا قررنا تعيينك مديراً لقسم الدراسات .

ونظرت حائراً

ـ مديراً لقسم الدراسات ، ولكن . لماذا ؟ .

ـ أنت الكفء المرجو لهذا ، فأرنا ما ستصنع ، ولا تخيب أملنا في حسن طاعتك .

وسمعت صوت السماعة توضع ، وضعت سماعتي ، ورأيت السؤال على وجه ملك . ولكني لم أستطع الجواب .

حاولت العودة إلى خيطان الكتاب ، ولكن عيني انزلقتا عليها دون أن تستطيع التشبث ، وانتظرت الرضا ، ومن يدري . ربما كانت هذه هي الخطوة الأولى . لقد بدأوا الرضا يا أدهم ، وكل ما عليك أن تنتظر وتبدي الطاعة ، فمن يدري ، ربما رضوا، وعدت . حاولت استعادة المدينة في خيالي ، ولكنها بدت أعمدة بعيدة وأحجاراً غير واضحة الملامح

* * *

- ٦ -

اسبوع كامل انقضى دون أن أجد فرصة للحديث إليه . لا زال يحتفظ بتلك الهالة من حوله . كنت أسمع الهمسات تتوالى في أروقة الوزارة: ألن يقابل الوزير ؟ ألن يطلب تعديل وضعه إلى مكانه الطبيعي ؟ ألن يحاول تغيير مكتبه على الأقل ؟

ولكنه أبداً لم يجب على أسئلتهم . ظل ذلك الطويل الملتحي ذا النظارتين الطبيتين الداكنتين الذي يدخل الوزارة بهدوء حاملاً حقيبة كتبه حتى إذا ما وصل مكتبه تنفس الصعداء وكأنه تخلص من حمل ثقيل ، ثم عمد إلى كتابه . فاستخرجه وغاص مبتعداً عن الوزارة كلها .

بدا الأمر وكأن هذا ما يشتهيه فعلاً ، الابتعاد عن العمل والدراسات والمخططات والنزول إلى الحقل للعمل ، وحتى عندما وصل أمر تعيينه مديراً لقسم الدراسات لم

يتغير فيه شيء ، وبدا الأمر وكأن ما يشتهيه فعلاً ان يخلو لنفسه قليلاً ، ويقرأ ، ولكن . ترى ماذا يقرأ ؟ حاولت في احدى المرات التلصاص عليه لأعرف ما يقرأ . كنت أتوقع مفاجأة صغيرة كأن يقرأ قصة مغامرات مثلاً ، أو قصة . حسناً. لنقل: جنسية، فالرجال في هذهالسن يميلون إلى استعمال المحرضات الذهنية . وعلى أحسن الأحوال كنت أتوقع كتاباً في التاريخ أو السياسة ، ولكن الكتاب كان شيئاً مخالفاً تماماً . هل يتصور أحد أن يخلو أدهم لنفسه ساعات وساعات ليقرأ كتاباً في الرياضيات البحتة ! هذا ما كان أدهم يقرأ .

المهم . هذه القوقعة يجب أن تحطم ، وهذه الحلزونة يجب أن تخرج إلى النور . أصبح الأمر ملحاً .

كررت زيارة مكتبهم أكثر من مرة أحاول اخراجه من القوقعة ، فتح حوار معه ، مشاركة في ضحكة على نكتة ، تعليقاً على حديث ، ولكن الأمر بدا عبثاً فأدهم لم يكلف نفسه عناء رفع الرأس والاصغاء إلى شيء من الثرثرة النسائية التي كنت أقودها ببراعة مع ملك التي لا يبقى بعد العاشرة سواها في المكتب .

بدأ الأمر وكأن اتفاقاً سرياً للتجاهل يجري . هو مصمم على التجاهل وانكار كل معرفة مسبقة ، وأنا أحاول إلغاء هذا التجاهل وبداية تعارف جديد ، ولكن كل المحاولات كانت عبثاً ، وأخذ تحد طفلي خاص ينمو مع احساسي بالهزيمة . يجب أن أدخل إلى أعماق هذا الرجل . لن أتركه يفر مني ثانية . كيف استطاع احاطة نفسه بهذه الهالة سريعاً ؟ الوزارة كلها ولا حديث لها إلا عن أدهم المظلوم ، المهندس الذي ابتنى مدينة ، المهندس الذي صنع مشروعاً رائداً ، المهندس الذي قاد آلاف الرجال والآليات وملايين الليرات ، ثم يخرج من هذا كله بهذه البدلة القديمة والنظارات العتيقة واللحية الشعثاء ، وحتى سيارة — على غبائه اللعنة — لم يستطع أن يحتجز لنفسه ، فقد اكتشفت كيف ينتقل من الوزارة إلى البيت وبالعكس. كان ينتقل بالميكرو مع صغار الموظفين وضاربات الآلة الكاتبة .

آه يا أدهم . أية قيم عتيقة تخرج بها إلينا ، تتحدانا ، وتريد جعل بياضنا أسود وانتصارنا أشوه ، ولكن . . . . .

واتصل بي مالك مدير العقود :

— لميس . هل يمكن أن أراك لبعض الوقت ؟

ومضيت ، فقد كنت في حاجة إلى إنسان يشجعني .

كان مالك في غرفة عملياته ، غرفة اختار لها خير أثاث في الوزارة ، ولكنه أثاث دون شخصية ، مكتب معدني فخم ، ومقاعد جلدية — أما الأرض فقد فرشها بالموكيت بدلاً عن السجاد القديم ، ثم استعاض عن الستائر بالأباجورات الأميركية. كان يريد كل شيء حديثاً ، ولكني أبداً لم أرض عن ذوقه في اختيار الأثاث .

— أهلاً . أهلاً .

قالها وهو يجاهد ليقوم من مقعده بكرشه الضخمة ووجهه اللحيم . لم يكن يبتسم ، وكنت أفضله هكذا ، فبهذه الطريقة فقط يمكنك أن تعتبره عادياً لأنه إذا ما ابتسم وامتدت بسمته من الأذن إلى الأذن ، فلن تستطيع التعامل مع كائن انساني ، فهو يصبح في هذه الحالة شيئاً رخوياً لا تستطيع الامساك به .

— لميس . أعرفت الخبر الجديد ؟

— أي خبر ؟

— خبر تعيين صديقنا مديراً لقسم الدراسات .

– عرفت ذلك حين وقعت القرار ، ولكن يبدو أن شيئاً فيه لم يتأثر .

– طبعاً ، فهو يعتبر نفسه أرفع من هذا .

وضربت جبيني بكفي في غيظ فجأة ، وتسلل عرق بارد مني .

– مالك . لقد ضاع كل شيء .

– ماذا تعنين ؟

– أعرفت معنى تعيينه رئيساً لقسم الدراسات .

– ماذا تعنين ؟ .

– هل خطر ببالك أنه سيكون المسؤول عن استلام مشروعنا والموافقة على الأرض التي اشتريناها ؟

وصفر صفرة طويلة ، فقد أدرك ما أفكر فيه

– صحيح . كيف لم أفكر في هذا ؟ .

ثم ارتخت ملامحه ثانية .

– على أية حال . سيكون هذا حافزاً أكبر لضمه إلينا .

– ولكن . ماذا ان أصر على الرفض ؟

– هل جننت ؟

– لا ، ولكني أعرف الرجل

قلت جملتي الأخيرة في حزن .

— اسمعي يا ميس . مشروعنا كبير ، وشركاؤنا كثيرون . سنتدبر طريقة ما لاقناعه .

— ولكن . مالك . لم تتعامى عن الحقائق . الأرض التي اخترناها لمشروعنا جبلية ، وأي مهندس في رأسه بقية عقل سيرفضها ، وسيكون على حق، فكيف لو كان الرافض أدهم ، وكان مدير الدراسات ، وكان رئيساً للجنة الاستلام بالتالي !

— تقولين هو على حق . أنت معنا أم معه ؟

وقلت ساخرة :

— ربما كنت معه. خاصة واني وضعت كل مدخراتي في هذا المشروع ..

— كلنافعل ذلك ياميس . كلنا فعل ذلك ، وعلى أية حال ، فقد كانت فكرة رائعة شراء تلك الأرض .

— أرض مجانية يا مالك .

— طبعاً أملاك دولة لا يعرف أحد قيمتها ، ولا أحد يريدها أصلاً .

— اسمع .. لو لم نكن على معرفة بمخطط الوزارة في انشاء مدينة ضاحية نموذجية هل كنا نغامر بشرائها

— هنيه . لميس . أرى في حديثك اليوم نغمة خاصة .

— بدأت أخاف من أدهم .

— تخافين من أدهم ؟

قالها مكشراً وهو يشير باصابعه الكماشية إلى رقبة سيخنقها ، وضحكت فقد كان منظره كاريكاتورياً .

— سأخنقه قبل هذا .

وتوقفت الضحكة أمام جمود وجهه غير الضاحك .

— اسمعي يا لميس .

— هه .

— سنتدبر طريقة ما لاقناعه أو . . . . سنزيله من طريقنا .

— أنت على حق . .

قلتها وأنا أمضي إلى مكتبي أفكر في أدهم . أملت كرسيي الدوار إلى الخلف واستندت إلى الوراء ، وتسلل أدهم إلي ثانية .

أدهم . أدهم كم أتمنى لو أستطيع مجالستك ساعة ، ساعة فقط تحدثني فيها عن نفسك ، أعرف شيئاً عن العالم المعتم في داخلك . ترى أية مرارة تعيش وأنت الذي شهد حلم العمر يتحطم ويسرق منك في آخر لحظة ، أية كوابيس تغلف ليلك تشاهد فيها شوارع مدينتك المسروقة تنتهبها سيارات أولئك الذين لم تحبهم ، فيلات مدينتك وقد سكنها أولئك الذين هربت منهم إلى مدينتك الحلم ، نوادي مدينتك يرتع فيها أولئك الذين ظننت أنك ستدمر عالمهم بمدينتك المثل .

ولكن . . . . . . لا . . . . لا أظنه يعيش المرارة ، لم أستطع أبداً رؤيتها على وجهه ، ليس هناك الا سكون ، سكون أبو هولي فقط ، سكون موظف اعتاد الجلوس وراء مكتبه في غرفة تحتوي ستة من المهندسين النقاقين ، فلم يدخلهم حياته ، ولم يدخل حياتهم ، واكتفى بالخلوة مع كتاب عن الرياضيات البحتة يغرق فيها نفسه .

شاهدته بالأمس أثناء تشغيلي سيارتي الصغيرة ، أطفأت المارش وتشاغلت بمسح الزجاج من الداخل أراقبه ، لم يكن شبحاً هادئاً يمشي كالحالم ، أبداً ، بل كان الواثق

الهادىء المغلف بالأسرار ، لا . ليس مسروراً أبداً ؛ هذا العالم الداخلي الخاص الذي أغناه عن العالم الخارجي . كيف لي أن أدخله .

كيف ؟ .

لم أعد أحتمل . هذا التحدي الجديد الذي دخل حياتي جعل لها طعماً جديداً ظننتني نسيته منذ أمد طويل . أصبح لحياتي طعم المغامرة ، وأصبح التحدي دافعاً لي بحد ذاته .

لأول مرة منذ أمد طويل أدخل الوزارة في ثوب أحمر ، وما كنت أفعلها من قبل ، فللعمل لباسه ، وللسهرات العائلية لباسها ، ولحفلات الكوكتيل لباسها أيضاً ، ولكني وجدتني أجرب ثوبي الجديد هذا دون تصميم مسبق ، ليس هذا فحسب ، بل وجدتني أفتح قارورة العطر الجديدة ، آخر هدية وصلتني من باريس ، وكنت أضن بها ، فأضع قطرات منها خلف أذني وعند فتحة الصدر .

ولم أنسَ بعض لمسات الأحمر والكحل على وجهي حتى استغربت منظري حين طالعني في مرآة السيارة ، وقاومت فكرة مسح كل شيء قبل الوصول إلى الوزارة عدة مرات .

المهم .. هذه هي الوزارة ، وهذا أنا ، وهذا أنت يا أدهم ، ولكن ، ونظرت إلى عيني المكحولتين في المرآة . توقفي قليلاً يالميس . ماالذي تريدينه من أدهم فعلاً ؟

ما الذي أريده ؟ في الحقيقة لا أدري تماماً ، ولكن هذه الكبرياء لا أحتملها ، هذا التجاهل . هذا التناسي . لو أنه ذكرني واعتذر لأشحت متجاهلة . لو أنه ذكرني وحن لأرضى بعضاً من كبريائي ، وما كنت أدري ما كنت فاعلة ، ولكن هذه الكبرياء — يا إلهي — لا أحتملها . وماذا لو لم تكن كبرياء ، بل كانت انغلاقاً على الحزن والهم الشخصيين ؟ أنسيت الهزيمة التي يعاني منها ؟ حسن . فلم لا يفصح إذن ؟ . ولكن مالك وله حتى يفصح لك ؟ ما كان قد مضى . أم تريدين بعث الميت حياً ؟ لا ، ولكن . لو . لو فتح لي قلبه فلربما استطعت مساعدته على اجتياز أزمته. أنت لم تعرضي عليه شيئاً . أنسيت؟ كل ما فعلته هو أنك حاولت أن تقيمي معه جسوراً فرفض .

وهذا ما لن أسامح فيه أبداً . سأخرجه من قوقعته ، وسأعرف كل شيء . المدينة الحلم ، المدينة النبتة ، المدينة الطفلة ، المدينة الناضجة ، ثم . . . . يجب أن أعرف لم طردوه منها . ما الذي جعله يتخلى عن الحلم الذي بناه.

بأكمله .. أي ثمن رفض أن يدفعه حتى ترك كل شيء ، كل شيء .

أسئلة كثيرة يجب أن تجيب عنها يا أدهم . لن أدعك تفر منها أبداً .

شربت قهوتي المعتادة مع ملك ، ومع ذلك فلم يلحظ تغيري ، وإن رفعت ملك حاجبها مستغربة ، ثم أطلقت نكتة عن الشباب العائد ضحكنا لها معاً ، وظل غاطساً في كتابه لا يرى ثوبي الأحمر ، والكحل في العينين ، ولا يشم العطر الباريسي يغلفني . شربت قهوتي باردة مع ملك ، ولم ينظر إلي .

في طريق العودة إلى البيت ومضت الفكرة حادة في ذهني ، ووجدتني أصفر صفرة داخلية طويلة ووجدتني أنحرف بالسيارة يميناً وأتوقف قليلاً أفكر . . . . هاه هاه هاه . . إذن فكل محاولاتي لفتح جسور معه فشلت لعدم الاهتمام ، لأني اليوم لاحظت شيئاً مختلفاً أزعجني عند ملاحظته تماماً ، بل أستطيع القول انه أمضني . . . . واستغدت المشهد . . . .

كنت أشغل السيارة بهدوء أنتظر خروجه لأرقبه في تحركه الجليل ، قطعة واحدة متزنة ، نظارات قديمة

الطراز ، وبذلة رمادية قديمة التفصيل وحقيبته العتيدة حين مرت . . . آه . كيف لم أنتبه إلى دلالة هذا في حينه . لحظته أول مرة يلتفت إليها ، بل ويتوقف إلى جانب الطريق يعيد ربط رباط حذائه ، وكان من الواضح أنها حجة للتوقف والمراقبة . كانت شيئاً لطيفاً فعلاً ، ولكنها ليست تلك التي تلوي أعناق الرجال ، ومع ذلك فقد لوت عنقه وتوقف يرقبها في اهتمام واعجاب واضحين . كان أشد ما يميزها تلك الرشاقة غير المعهودة لمن في سنها الشرقية ، ثم تلك الأناقة المتحدية ، ولكن كل هذا يمكن اصطناعه في فترة قصيرة . معهد تجميل ينقص وزنك عشرين كيلو في شهرين ، وبعض النقود لاستيراد الأناقة ، فإذا بالرشاقة والأناقة جاهزتان ولكن ... اللعنة على الفراغ . المهم ، لأول مرة ألاحظه يخرج عن وقاره ويلاحقها بعينين نهمتين إلى أن ركبت سيارة صديقتها التي توصلها في طريقها إلى البيت.

هاه هاه . أدرت محرك السيارة ثانية . لقد عرفت سرك أيها المراهق العجوز . هاه . إذن فنحن لم نعجبك . أما هذه الكتلة المصطنعة فهي التي استطاعت حوز اهتمامك . حسن . عرفنا الآن كيف يمكن اخراجك من قوقعتك .....

* * *

– ٧ –

ما الذي يجعل الرجل وهو الذي يظن نفسه الأكثر حكمة في تاريخ الكون يتخلى عن حكمته ، عن مدخرات الحضارة في رأسه ، ويسعى وراء حيوان جميل اسمه المرأة . بل ما الذي جعل بافنوس وهو الراهب الأكثر تقى واحتراماً في الاسكندرية يتخلى عن كل شيء ويجري وراء تاييس .

لفتة واحدة يا أدهم . لفتة واحدة ربما لم تكن معنياً بها . نظرت بجانب عينها مبتسمة . لك ؟ ربما . لا . نعم . لا أعتقد ، فهي لا تبسم لانسان معين كما لاحظت فيما بعد . انها بسمة دائمة . سلاحها الوحيد الذي به تدك كثيراً من القلاع . يكفي أن تقع عليك البسمة حتى تحس أن

السعادة كلها قد أصبحت مالك يديك ، ليس فيها حسن كثير ، ولن تجد في حوارها كثير متعة كما أدركت فيما بعد ، ولكن سعادة واحدة وكبيرة وواسعة ستلتف من حولك كأصابع أخطبوط خفية ما تزال تداعبك وتداعبك وتدغدغك حتى تستسلم . بسمة بيضاء كبيرة . بسمة تعرف متى تطلقها ، فإذا بك ولم يعد أمامك إلا أن تستسلم للبياض فيها ، وتصغي إلى ثرثرات قديمة حديثة . هذر وهراء ، سخف وحديث نساء ، لا يمكن أن يملأ رأسك ، لا يمكن أن يقنعك ، ولكنك لضعف صغير فيك لا تعرف من أين يتسرب . أهو من التاريخ القديم ؟ أهو من الذاكرة الجمعية ؟ أهو من الحنين إلى أصابع الأم تداعب فروة الرأس المستلقي في حضنها ؟ لا تعرف ، ولكنك تستسلم ، وتستسلم بهدوء ، وتحسك تسبح في بحيرة صغيرة من زئبق رجراج يحيلك إلى كتلة صغيرة في عالم مضيء بهيج طري سعيد . انها البسمة البيضاء .

.. التفتت بجانب وجهها مع تلك البسمة البيضاء العجيبة . فإذا بي أحس ضربة حادة في مؤخرة الرأس ، ضربة جعلتني أتساءل فجأة . ما هذا ؟ ما الذي يدور الآن ؟ أية غيمة

سندسية خضراء حطت فجأة فغطت المكان وأحالته إلى إشراق دائم .

راقبتها تتقدم في ثوبها الأبيض مبتعدة ، وأحسست شهقة صغيرة في القلب . انها تمضي . فتحت باب سيارة تنتظرها ، وسمعت همسة وضحكة وانطلقت السيارة . وتوقفت لا أفهم . ما الذي جرى ؟ حاولت أن أخضع ما أحسست به للتفسير والمنطق اللذين عشتهما العمر كله ، ولكن ما حاولته مضى هباء ، فما أحسه شيء آخر . انها البسمة البيضاء .

تقدمت بخطى متثاقلة ، فلم يعد هناك ما يسعى بي إلى الحركة . تقدمت إلى الميكرو باص ولم أحيّ بل انتبذت جانب النافذة ، وأخذت أرقب الشوارع تسعى إلى جانبي . التفت إلى الزجاج . كان وجهي الملتحي بنظاراتي المعتمة وفوديّ الأشيبين غير بهيج . ابتعدت بعيني وأخذت أرقب الشارع ولكن سيارة معاكسة شدتني إليها لأفاجأ بوجهي ثانية في الزجاج . نظرت إلى الوجه الكئيب ، وأحسست كراهية صغيرة تنبثق ضده . لماذا ؟ .

انها المرة الأولى أحدق في وجهي فأرى الكآبة والشعر

مختلط البياض بالسواد عليه. أرى النظارة العتمة. أهذا وجه يستحق السعادة ؟ أهذا وجه يستحق أن تنعكس عليه البسمة البيضاء ؟ ولكنها ابتسمت. ابتسمت؟ ما يدريك أن البسمة كانت لك ؟ رأيتها في قلبي تنعكس بياضاً وبرقاً ، بهجة واشراقاً .. هه هه هه ضحكت في كآبة ، ولكن . ما يدريك . السعادة تهبط أحياناً كنعمة ، بركة تقدم دون مشورة وما يدريك ؟ .

تغيرت الوزارة فجأة . تحولت من مطهر ومكان عقوبة إلى مكان جميل تقضي الليل منتظراً العودة إليه على أمل رؤية تلك البسمة البيضاء تراها وتغرق فيها .

* * *

— ٨ —

إذا لم تنقد الدنيا إليك ، فعليك أن تنقاد إليها ، وما لم أستطع تنميذه بنفسي فربما استطعت تنفيذه بغيري ، ومن يدري . ها قد عرفت سرك أخيراً يا أدهم. عرفت ضعفك . إذن فلا زالت فيك رغبة للنساء ، والجميلات منهن للأسف لا بأس . فما الذي أريد منك في نهاية الأمر . لا شيء الا تحطيم القوقعة واكتشاف عالمك الداخلي . هذا العالم الذي أخفيته عني وعن الجميع منذ قدمت إلى الوزارة .

أريد أن أسمع منك ، اسمع عن تلك المدينة وكيف بنيتها ، وأية أحلام راودتك ، وأية سعادة شعرت بها وأنت تبنيها حجراً حجراً ومدماكاً مدماكاً .

أريد أن أسمع عن الخيبة التي أحسست بها حين خسرت كل شيء . ونزعت من مدينتك الحلم ، وجئت إلى الوزارة خاسراً ضائعاً تبحث عن العون ولا عون .

ولكن . لا . أنت تحلمين يا لميس . هناك شيء صلب في داخله . شيء يجعله في غنى عن عون الآخرين . ألم تريه في عزلته السعيدة .

لا . كان هذا فيما مضى ، وقبل أن يراها ، تلك التي سنسحبك من خلالها إلينا .

بناؤنا رغم عدم رضاك عنه أكثر تماسكاً وقوة . يجب أن تعرف هذا وثوبنا أبيض ولن ندع لمثلك أن يشوه فيه أو يبدي احتجاجاً عليه . أتسمع ؟ سوف تأتي خانعاً راضياً مستسلماً ، وسيكون مفتاحك إلي حوراء . . . ولكن . . كيف الوصول إليها .

ايه . . . حمى جديدة دخلت حياتي . يجب ترتيب الأمر . يجب ألا تترك نقطة واحدة فيه للخطأ .

حوراء حوراء . موظفة العلاقات العامة الحسناء التي يسعى الكثيرون لنيل رضاها . وكما عرفت فهي ليست بالبخيلة بالرضا على الأقل . أما ما وراء الرضا فلا أعرف . حسن . كل ما يحتاج إليه الأمر هو بضع تكتيكات وما أسهلها .

هتفت إليها ودعوتها لتناول فنجان قهوة معي .

— الآن ؟

— نعم... ولم لا ؟ فنجان القهوة الصباحي . لدي بن طازج حسين الهيل . تعالي أنا في انتظارك .

— حسن — قالت متأنية تدرس الأمر — فلم لا تأتين وتتناولينها معنا . قهوتنا جاهزة .

لم أكن في حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة حتى أمضي إليها . لم أزر غرفتها قبل الآن وما أكثر الغرف التي لم أزرها من قبل في هذه الوزارة ! أصائص ورد لطيفة و (كشة) من الأرامل والمطلقات كما علقت احدى الخبيثات فيما بعد .

رحبت بي في لطف حذر ، ولكني سرعان ما كسبت صداقتها . ليس هذا فحسب ، بل ولم أترك غرفتها حتى مضت معي إلى غرفتي لنعيد شرب القهوة .

حاولت الدخول إلى حياتها ، ولكنها اكتفت بأن قدمت لي صورة جميلة عن المرأة المستمتعة بالحياة .

— في عطلة الربيع ذهبت إلى باريس فاستقبلنا هناك عمو خليل . عمو خليل الخليل لا تعرفينه ؟ واحد من أكبر

أثرياء فرنسة . طبعاً أصله من هنا ، ولكن . آه لو تعرفين . قصر كقصور ألف ليلة وليلة . الثريات السيفير الأصلية ، السجاد العجمي الذي لن تريه بعد الآن حتى ولا في بلاد العجم . اللوحات كلها أصلية .

— لوحات لمن !

— أووه . وهل تظنينني متفرغة لأقرأ أسماء رساميها . لوحات كلها جميلة تكاد تنطق ، صور نساء عاريات ، حقول جميلة ، حتى الطبيعة الميتة شيء يجنن .

— في الصيف الماضي كنت في أميريكا . تعرفين . أخي يعمل مدير بنك هناك. حياة مسلية فعلاً .. سيارات . رحلات . ناطحات سحاب . آه . أميريكا شيء رائع . رائع فعلاً لا يعرف حقيقتها إلا من رآها . هل ذهبت مرة إلى أميريكا .

واضطررت إلى الاعتراف بخجل أني لم أعرف هذه المتعة بعد ، واستمر حديثها طويلاً ، حتى وأنا أصنع القهوة لم تتوقف عن الثرثرة . كانت عصفوراً رشيقاً يقفز من زهرة إلى زهرة ، من غصن إلى غصن دون أن تحمل هما ، دون أن تتعب نفسها بالتفكير طويلاً .

تسقسق وتسقسق فقط ، وكانت بسمتها اللطيفة لا تختفي عن فمها أبداً ، ولكنها حين قهقهت بعد نكتة عن القهوة وصنعها تكشف فكها الأسفل عن ضرس مفقود ، وحين علمت بأن لدي سيارة صغيرة أذهب فيها إلى البيت أحسست بلمعة غيرة خاصة في عينيها .

— لم أشتر سيارة بعد ، ولكن في مخططي القريب أن أشتري واحدة ان لم أسافر إلى أوربة هذا العام .

— تعانين في الوصول إلى البيت ولا شك .

— بعض الشيء ، ولكن لي صديقة توصلني معها بين الحين والآخر .

— أستطيع ايصالك في طريقي ان كان هذا يسرك .

وقالت في ضعف :

— لا . لا أريد أن أثقل عليك .

— تثقلين علي ؟ على العكس . أحببت حديثك وصحبتك لا ، بل سأوصلك اليوم بكل تأكيد .

تأكدت تماماً أن مخططي يسير في الطريق الصحيحة

حين لا حظت نظرة العرفان في عينيه، وهو يراني أقودها إلى سيارتي ، ليس هذا فحسب ، بل انه رد على تحيتي حينما أشرت برأسي محيية . ها هي الحواجز تسقط والقوقعة في طريقها إلى الانحلال .

* * *

— ٩ —

لمسة أخرى تحت العين ، وتصبح العين كما في المجلة تماماً . فتحت حقيبتي الصغيرة ونظرت إلى المجلة . لا . يجب أن أمسح هذا الظل الأخضر عن اليمين قليلاً . هه . عظيم بعض الكحل الأسود ليبدو اتساع العين بلا حدود ، والأهداب . آه الأهداب انها السحر . انظري . قليلاً من الماسكاراه هنا وقليلاً من الضغط على الهدب قليلاً . آه . ليت أهدابي كانت أقصر من هذا قليلاً لوضعت أهداباً صناعية ، ولكن أن تضعي أهداباً فوق أهدابك هذه فستبدين سخيفة . راقبت خطي الحاجب وهممت برضا ، لمسة أحمر صغيرة هنا ولمسة أخرى على الشفاه آه . تبدين في أحسن حال الآن يا حوراء .

جمعت عدة الشغل كلها في الحقيبة بسرعة ، فلقد سمعت نقرة على الباب بخخت بعض العطر من الأتومايزر ، وفتحت الباب ، وعدت إلى مكتبي . قلبت الصحف

بسرعة ، ولم يكن فيها ما يقرأ . فتحت صفحة الأبراج وبحثت عن برجي وقرأته بلهفة (تستقبلين صديقاً ، وتفتحين صفحة جديدة في حياتك) ورفعت حاجبي في دهشة . ما معنى هذا ؟ أستقبل صديقاً وأفتتح صفحة جديدة في حياتي ؟ .

ورن الهاتف . رفعت السماعة ، وسمعت صوتاً نسائياً متلطفاً .

— آنسة حوراء !

— همم .

— أنا لميس مديرة الشؤون الادارية .

وتوترت قليلاً ماذا تريده مني مديرة الشؤون الادارية ، وأجبت بسرعة .

— أهلاً وسهلاً .

— اسمعي . ما رأيك لو شربنا القهوة معاً .

— خيراً .

قلت في توتر .

— لا . لا شيء . كل ما في الأمر أني سمعت عنك من بعض الصديقات ، لونزيد من تعرفنا .

وارتحت .

— هذه سعادة يا مدام لميس .

— هل ستأتين ؟

وكدت أجيب بالايجاب حين رأيت ركوة القهوة تغلي على السخان الكهربائي فقلت بسرعة :

— ولكن قهوتنا جاهزة هل . . — وكدت أقول نؤجلها حتى الغد حين أكملت — هل تحبين أن تشربيها لدينا ؟

— لا مانع ولكن . . . . . .

ورأيت ترددها ووجدتها فرصة أمام زميلاتي في الغرفة حين تزورني لميس بنفسها فبترت ترددها .

— لا داعي لهذه اللكن . قهوتنا طازجة وغرفتنا مريحة . هه

قلت كلمتي الأخيرة في اغراء ووجدتها تستجيب .

— حسن . سأشربها معك ، ولكن على أن تأتي أنت في المرة القادمة .

— لا بأس .

جهزت الفناجين بسرعة ، وقلت في لا مبالاة .

— لميس . مديرة الشؤون الادارية ستشرب القهوة معنا.

وتعمدت ذكر اسم لميس دون صفة احترام ، ورأيت دهشة خفيفة على وجوههن ودخلت .

احتلت كرسياً إلى جوار كرسي مكتبي واتضح ان الزيارة لي فقط وقدمت إليها سيكارة كنت ، فأخذتها بغادية ، وانتظرت أن أشعلها لها فأشعلتها .

ومع تقدم حديثها الودي المتبسط أخذت أسطورتها في التحلل . لميس قوية الوزارة وأحد أعمدتها تتكشف عن امرأة لطيفة حبوبة تمزح وتضحك وتداعب ، وأخذ زهو خاص يجتاحني ، ولكن تحفظا سرياً صغيراً ظل يعمل في : ما الذي تريده فعلاً ؟ . ما سبب هذه الزيارة ؟ . ما الذي تريده مني ؟ ولكنها أبداً لم تكشف عن هدفها . كانت تثرثر وتتحدث عن سهرات ومتع وأفلام وكتب ، وكنت أتابعها متوقعة أن تدخل في موضوع الزيارة ولكن بعد طول حديث اكتشفت أنه لا يوجد لديها هدف خاص . كل ما تريد أن تتعرف إلي ، وكانت زيارة ناجحة لم ترض أن تختتمها الا حين وافقت على المضي معها إلى مكتبها واعادة شرب القهوة هناك ، ووافقت ، فلم يكن لدينا

ما نعمله في ذلك اليوم ، فليس هناك من وفود لأستقبلهم ولا زوار لأترجم لهم .

وقلت لزميلتي سهير بعد أن سبقتني لميس إلى الباب .

– سأشرب القهوة في مكتبها ان أرادني الوزير فأنا في مكتبها .

وارتفع حاجبها مستغرباً ، ولكنها لم تعلق . طرقت الأرض بعقب حذائي في قوة ولحقت بها متخيلة عيونهن تلاحقني في غيرة ، فهاهم المدراء يتقربون مني ويتمنون التعرف إلي .

* * *

— ١٠ —

ما أبشع أن يغدو جسدك عدواً لك ، هذا الجسد الذي رعيته طويلاً ، دللته وداعبته ، التذذت به وألذذته ، تنرجست به ، وقدمت إليه الاعجاب والحب والرغبة ، ولكن الطموح والنضج ونمو الانسان فيك سرعان ما جعلك تهمله ، بل وأحياناً تزدريه خضوعاً للجزء الآخر — العقل — ولكن وفي لحظة وحين تريد التواصل مع الآخرين لن تجد جسراً سواه ، فتتقدم منه ذلك الأرضي المزدرى الذي أهملته طويلاً ، تخليت عنه واحتقرته، عاملته كآلة ، كحيوان جر يقوم بخدمة الاله الأكبر — العقل — تنظر إليه مستعيناً ، ولكن . أين ذلك الحيوان الأولمبي الجميل ؟ أين تلك البشرة الناضرة الساحرة ؟ أين ذلك الشعر الكثيث ؟ أين تلكما العينان البراقتان الساحرتان ؟ أين تلك القامة الهيفاء اللدنة النابضة بالحيوية والعافية ؟

تنظر إلى ذلك كله لتكتشف أن البشرة قد تغضنت ، والشعر قد خالط فلفله الملح ، والعينان قد أضناهما طول استخدام العقل لهما ، فاستعانتا بنظارتين أكلتا بريقهما وفتنتهما ، والقامة الهيفاء قد تهدلت واسترخت وحط عليها الزمن بثقله .

آه . أيها الجسد المعبود المزدرى . كيف أمكنك أن تتحول إلى هذا الشيء المخجل ؟ .

نظرت إلى أنا الآخر طويلاً في المرآة ، وأحسست بعاطفة مختلطة من الكراهية والمقت والشفقة ، ولكن . ما الجسد في المحصلة الأخيرة ؟ أليس الواسطة لحمل الفكر ، لنقل قوى العقل — متى كنت يا أدهم تهتم بمثل هذه الترهات؛ ولم تهتم بها الآن ؟

آه يا لبسمتها البيضاء ، ولكن النساء يخضعن أيضاً لفتنة العقل ، لا ، لا بد لفتنة العقل من أن تمر عبر جسر فتنة الجسد . هل استمعت إلى عقلها مرة قبل أن تحس بدوار الفتنة أمام ضحكتها البيضاء . انه الجسد يا أدهم . الجسد الشيء الحقيقي الملموس الوحيد ، أنكرته طويلاً ، وها أنت تقع ضعيفاً أمام سطوته . هل تستطيع أن تنكر ؟ .

أنكر ؟ وكيف لي أن أنكر وأنا أراني للمرة الأولى في حياتي أهتم بالوقوف أمام المرآة أتأمل الآخر الكريه ، أتأمله في رجاء ، في تمن . في أمل الا يحاول خذلاني أمام بسمتها البيضاء .

أنظر إليه وأنا أحاول تدليله للمرة الأولى . أنظر إلى ثيابي التي لم أهتم يوماً بمناقشة أناقتها ومناسبتها للموضة أنظر إليها وأقرر أخيراً أن الأوان قد آن لأستبدل بها ما يسمح للجسد باستعراض فتنته . ولكن . الجسد آه أيها المعبود الممقوت كيف لك أن تجعل تلك البسمة البيضاء تلتفت إليك ، تبتسم لك وحدك ، تحتضنك برقتها البيضاء . آه . أيها الجسد أيها الحقيقة الوحيدة المكروهة أصبحت واحدة من عاداتي أن أتمهل أثناء خروجي من الوزارة . أتشاغل باقتطاف زهرة ، أو مراقبة عصفور ، أو اعادة ربط حذائي حتى تمر فأتزود برشفة من بسمتها البيضاء التي تنثرها من حولها في كرم ، ولكني اليوم فوجئت بتغير واضح في مسلكها . لقد كانت تمشي مع لميس ، وكانتا تضحكان في عذوبة ، وكان واضحاً أن عالماً خاصاً من السعادة يحتضنهما معاً .

مع لميس ؟ كيف تم ذلك ؟ متى ؟ لماذا ؟ ولكن ما يدريك . لعله الحظ ساقها إلى صحبة لميس . لميس . آه . أي تاريخ قديم ما كنت أحب بعثه ، ولكن يجب أن نبعثه من جديد يجب ، فلم يعد لك من خيار : انها البسمة البيضاء ، ويجب أن تخضع ، ولكن .. كيف يمكنني أن أقترب منها ، ورأيت لميس تنظر إلي في ود ، وتشير برأسها محيية ، ووجدتني أرد التحية ، والتفتت البسمة البيضاء إلي قليلاً ، ثم ارتدت إليها ، وربما سألتها عني ، وربما أجابتها ، .. وربما . . . . ولكنهما دخلتا السيارة الصغيرة التي انطلقت بهما ، وانساقت قدماي باتجاه الميكرو ينقلني إلى البيت .

* * *

- ١١ -

- أليس شيئاً عجيباً هذا العالم ؟

سألتها في عادية .

- طبعاً - ثم / بعد توقف قليل - ولكن . ما الذي جعلك ترين عجبه الآن ؟

- آه يا حوراء . أشياء كثيرة ، ولكن تصوري . عبقري كهذا لو كان في بلد آخر لعومل غير هذه المعاملة ، لكرّم ، وأقيمت الاحتفالات من أجله ، ولكن . عندنا . هاهنا . انظري . يكافئونه بتحويله إلى قطعة أثاث في مكتب لا يعمل ، في وزارة لا تحتاج إليه .

- ما زلت لا أفهمك .

- أدهم . ألا تعرفينه ؟ .

- أدهم . من أدهم ؟ .

واكتشفت أنها لا تعرفه فعلاً ، بل وربما لم تلاحظه

أصلاً .

ـ المهندس أدهم الأدهمي . المهندس الذي بنى المدينة الأولى في الصحراء ألم تسمعي به ؟

ـ أبداً .

قالتها في عادية .

ـ آه . كم هذا العالم غريب . مهندس كهذا يضحي بمستقبله في وقت كان يكفي للمهندس أن يوقع على ورقة لأي مقاول حتى يصبح ثرياً . في وقت كان يكفي للمهندس أن يشير بيديه للمال حتى ينهال عليه ، فيقرر أن يتخلى عن كل شيء ويمضي للصحراء ليبدأ بناء مدينة جديدة هي الأجمل والأرقى والأكثر حضارة في البلد .

قالت وقد بدأت تهتم قليلاً .

ـ أهو كذلك فعلاً ؟

ـ أف حوراء . لا أكاد أصدق أنك لا تعرفين هذا كله .

ـ بل لا أعرفه فعلاً ، ولكن آه . انك تذكريني بالمرحوم فاروق .

ـ أي فاروق ؟

— آه خطيبي ؟

— آه — وكان مهندساً ؟

— لا ، بل كان دكتوراً في العلوم البيولوجية .

وقلت غير مصدقة .

— هنا في البلد ؟ .

— لا ، بل هناك في ألمانية .

وعرفت لم تعلمت الألمانية ، وأخذت تقص علي قصة تلك الأيام الجميلة ، الأيام الحلم التي قضتها معه .

— كنت في الثانوية حين جاء يخطبني . شاب آه يا لميس — ماذا أقول عنه ، الأناقة ، الرشاقة . آه كان المسكين ابن موت . أليس كذلك . ليس هذا فحسب ولكنه كان قد درس في فرنسة . أتصدقين ؟ دكتور في البيولوجيا متخرج من فرنسة ويعمل في ألمانية ، أي أن العالم كان بين يديه ، الخبرة والمعرفة ، المال والمجتمع الراقي .

لم يكن في حياتها تجارب كثيرة قبل أن تتعرف إليه ، وكانت ككل البنات الصغيرات المعجبات بعبد الحليم حافظ وآلان ديلون ، رموز حلوة من بعيد لبعيد وهذا لا يمنع لهذه الرموز أن تتطابق أحياناً بشكل أو بآخر مع

واحد من أولاد الجيران أو زملاء المدرسة ، ولكن القلب لا يزال بعيداً عن الانفتاح للواقع . ان الصورة المتخيلة أجمل ؛ يمكنك أن تخاطبيها ، تبثيها أشواقك ، رغباتك ، معارفك ، أمنياتك دون كثير خجل من تعرية نفسك أمام الآخر الواقع .

وتقدم فاروق حلماً واقعاً في آن واحد ، فهو الصورة الذهنية لكل الأحلام عن عالم من قصور ويخوت ورحلات صيد ، عن عالم تزلج على الثلج وأنت تلبسين الطاقية الصوفية الحمراء ، وتلفين كفيك بقفازين من الصوف الأحمر ، وساقيك بجوربين صوفيين أحمرين ، فالألوان يجب أن تنسجم مع الكنزة والبنطال الأبيضين .

— صحيح أنه لم يكن يبدو عليه الاستعداد الكبير للاندماج في عالم كهذا ، ولكنه كان هناك . أهذا شيء قليل ؟ كان في فرنسة ، وعرف أوروبة ، وخالط كل أولئك القوم الظرفاء الأنيقين الحلوين الذين نراهم في السينما والتلفزيون .

— كانت خطبة سريعة لم أعرف كيف طبخت ، فقد كانت اجازته لمدة خمسة عشر يوماً فقط . كان عليه أن

يخطبني ، ثم يسافر إلى ألمانية ، ثم يعود في الصيف ليعقد القران ويزفني إليه ونرحل إلى ألمانية ، وكان علي أن أتعلم الألمانية في هذه الأثناء وقبل أن أسافر معه .

لم تتحدث عن مشاعرها ، عن عواطفها ، عن الرغبات التي استثيرت بهذه الخطبة لديها قدر ما تحدثت عن الثوب الأبيض المشغول باللؤلؤ ، عن الطرحة التي استحضرت من باريس ، عن النادي الذي أقيم فيه حفل الخطوبة ، عن المبلغ الكبير الذي كلفه حفل الخطوبة ، عن ثياب المدعوين والمدعوات ، عن أنواع الطعام والشراب التي قدمت ، وأحسست بالشفقة على أدهم ، كيف أمكن لك وأنت ذلك العقل الكبير الذي دوخ بنات الجامعة برزانته واتزانه ، والذي استطاع الحفاظ على توازنه في بحر المضطربات الحديثة التي قلبت كل الموازين الطبقية والخلقية والاجتماعية ، ومر من هذا المطهر كله مرفوع الرأس .. كيف أمكن له أن يحس بالضعف أمام هذه المرأة القناع ؟

نزلت من السيارة ، ودرت بها عائدة إلى البيت أفكر .. هل أتخلى عن الأمر كله وأتركه لقدره يتصرف فيه ، أم إستمر حتى أستحضره إلى ساحتي لأعرف منه ما كتمه

عني طويلاً ، أعرف سر قوته الذي جعله يتخلى عني وعن كل شيء ويمضي إلى الصحراء ليبني مدينته ، ثم ينجو من أصابع كل تلك الأخطبوطات التي عايشت معه بناء المدينة طويلاً ، ثم لم تستطع تلويثه أو جعله ينزاح عما وضع لنفسه من خطط أصبعا واحداً ، ثم ها هو حين يلقى به في هذا المطهر ــ المحرق لا يتأثر ، بل يحافظ على رأسه مرفوعاً وراء نظاراته الطبية دون أي احساس بالضعف أو التخاذل أمام الذين انتزعوه من حلمه .

ولكن . ليس هذا هو الأمر فقط يا لميس : هناك المدينة التي ستبنونها ، تراث العمر ومدخرا لماضي كله وكنز المستقبل . يجب أن ينحاز إلينا ويوقع الوثائق ويقبل بالأرض التي اشتريناها .

كيف كان يمكن لنا أن نخضعه لهذا لولا حوراء . حوراء ؟ ولكن . هل تستحق مثل هذه المرأة ان تضعف امامها يا أدهم ؟ استحضرتها في المرآة أتأملها ، لم تكن على ذلك الحسن ، بل ولا على تلك الرقة أو الظرف ، ولكن . هناك شيء ما . شيء لا أستطيع ادراكه ، شيء يجعل عقلاً كأدهم يقرن الاهتمام بهذه المرأة .

– لم لا تسافرين معي ؟

– إلى الخليج ؟ لا يا سيدي ... لا أستطيع .

– سنعيش هناك كما تهوين .

– لا أحب الخليج أنت تعرف

– أتريدين أن أبقى ؟

– أنت حر .

– أريد رأيك .

– كان فيلماً عظيماً بالأمس . سهرت معه حتى منتصف الليل .

– فعلاً . كان فيلماً جميلاً – وبعد توقف قليل – ولكنك تهربت ثانية .

وقلبت المجلة .

– أتقرئين ؟

– همم .

– ماذا تقرئين ؟

– اللون الذهبي في عيون جريئة . موضة تعكس جمال العيون وسحرها . . . موضة جديدة استخدم فيها اللعب في تناسق وتصادم الألوان خاصة في المجموعة التي تستخدم

في تلوين جفون العين . هذا التلاعب في اختيار الألوان على حد قول خبراء التجميل يعكس عيوناً هادئة عميقة .

— كعيونك .

— ساحرة وجريئة في الوقت نفسه .

— أحب عيونك الساحرة والجريئة .

ورشفت رشفة من الفنجان قبل ان يبرد .

— أتأكلين ؟

— لا . أشرب قهوتي .

— انك لا تستمعين إلي .

— من قال ذلك ؟ بل أنا أستمع . اسمع . اللون — الموف والبنفسجي الفاتح . تستخدم في ظل الجفون العليا مع بعض من الكحل الأزرق .

— حوراء يكفي . استمعي إلي .

— أنا أستمع .

— لم تجيبيني .

— اسمع . اسمع ، ومع أحمر خدود وردي فاتح وأحمر شفاه يميل نحو الموف الفاتح .

– حوراء . مع السلامة .

– بل اسمع .

– لا . سأهتف لك فيما بعد .

وضع السماعة ، وعرفت أنه تضايق ، ولكني أعرف أنه سيهتف ثانية .

أعرف . . . . ولكن . . . . . . إنه لطيف ، فلم تضايقينه . همم أستمتع بحديثه ، ولكنه لا يقنعني . ما أريده شيء آخر . نظرت إلى الساعة . لا . يجب أن أقوم وأستعد لسهرة الليلة . نفضت اللحاف عني ، وتأملت ساقي الطويلتين في المرآة تحت البيجاما القصيرة . همم . ساقان جميلتان يا حوراء . جميلتان . . . . ن

* * *

- ١٣ -

آه من هذا الوحش البارد الذي يحتل الأعصاب فاللحم فالعظام فالروح يوماً اثر يوم ، هذا الغول البارد ذو الأذرع الآلاف والماصات بلا عدد ، يتسلل ، يتسلل ، يتسلل ، فإذا بك لا تستطيع الا الاستسلام لتكتشف أن أحلام الصبا قد شاخت وان أرق ليالي الفتوة قد أخنى عليها الدهر .

آه أيها السأم ، أيها الاله الليلي القاسي كيف تتسرب إلى الحياة لتخمد بريق أجمل ما فيها .

أشرب قهوتي الصباحية وأنظر إلى درابزين الشرفة الصدىء وإلى أصص الصبار المنتشرة ها هنا وهنالك وأحسني منفصلاً عن كل شيء ❋

أشرب قهوتي الصباحية الأولى وأسمع نشرة الأخبار الأولى وتتسرب البرودة إلى الروح حين تقفز أمامي بشوارعها المستقيمة ردرابزيناتها النظيفة وأشجارها النضرة وأطفالها

موردي الحدود ، ثم يبرز بوجهه الكالح وعينيه الرماديتين ليبلغني أن كل شيء قد انتهى وأن زمن الرسالة قد مضى وأن على أدهم الأدهمي أن يعود وقد خسر كل شيء .

آه أيها القرف ما أشد ما تتملك نفسي . كم تمنيت لو ملكت الجرأة فقتلت ، أو لو ملكت الجرأة فقُتِلت ، ولكني معتمداً على أمل في رضا لا أضمنه قررت أن أخضع أمام العاصفة منتظراً الليالي القادمات ، ولكن ذلك الاله الليلي البارد ذا اللون الرمادي الرصاصي يتسلل كل ليلة ، يحتضنني ، يعانقني . يتسرب إلى أنفاسي فأحس الاختناق الهادىء ، وأتمنى الموت ولا موت .

وفجأة من المجهول تنبثق ، من سديم لم أسمع به من قبل تتخلق ، أمازونة قاسية لا مبالية ، فارسة سلاحها بسمة بيضاء ولا مبالاة فإذا بنثار من ملح يسقط على ليل السأم فيذيبه . أذكرها تتقدم هالة وغيمة ورفيفاً ، تتقدم إلى مقدمة الذاكرة فإذا بها بسمة وعينان ضاحكتان ، تتقدم ألقاً ورقة وبهجة وصفاء ، تنتشر فتضمخ المكان بسعادة جديدة تجعل حديد الدرابزين الصدىء يحسن ، وصبارات الأصص تلتهب حباً .

أشرب قهوتي وأراقب المدينة تتمطى ، أشرب قهوتي وأسمع نشرة الأخبار الثانية وأرى المدينة تسبح في غيمة وردية شفافة .

أشرب قهوتي وأسمع نشرة الأخبار الثالثة وتستيقظ المدينة ولا يتسرب الحلم .

أشرب قهوتي وأمضي إليها هناك ، ومن يدري ، فلعلي ألقاها .

أدخل المكتب ، فأراهم جميعاً بوجوههم المهمومة وعيونهم المتعبة . أية ليال قضاها هؤلاء الناس أيضاً ؟ أتراهم يحلمون بأمازونات قاسيات أخريات ؟

يشربون قهوتهم ويتسللون ، يشربون قهوتهم وينظرون إلى ساعاتهم ينتظرون مواعيد أعمالهم الأخرى ، يشربون قهوتهم ويقرؤون صحف الصباح ينتظرون ما لن يأتي ،

يشربون قهوتهم ويعبثون بسنانير الصوف وابر الحياكة ، يتسربون ، يتسللون ، يمضون فلا يبقى سواي وملك . أفتح كتابي القديم لأعود إليه .

يرن الهاتف فلا أهتم ، ولم أهتم ، وليس من أحد يهتف لي في هذا المكتب ؟

ولكن ملك التي تجيب تضع يدها على فم السماعة .

ـــ أستاذ أدهم . الهاتف لك .

رفعت سماعة هاتفي ووضعت سماعتها .

ـــ نعم .

كان صوتاً جميلاً عرفته . أعرفه . معروفاً . لا أعرف ، ولكنه ليس غريباً .

كان صوتاً منبثقاً من الصبا ، من الأحلام ، من الأشواق القديمة ، كان صوتاً فيه صورة المرآة وجمال النرجس وحمرة زهرات الخبيزي . كان صوتاً متحمساً يتحدث عن اعجاب قديم بالمهندس العبقري الذي هو أنا ، عن رغبة في مصافحة اليد التي بنت ذلك البناء الجميل عن . . . . وعن . . . . . وعن ......

وتحرك شيطان صغير ظننته مات منذ سنوات المراهقة ، تحرك مبتهجاً فيها الحياة تدب في دفين السنين ، وها الخضرة تعود إلى الجذع القديم بعد شتاء طويل .

وانقطع الهاتف على وعد باتصال ثان .

تراها من تكون . أية أحلام تحمل إليّ . وأي فرح تخفيه الأيام . أترى لا يزال في الألوان لون آخر غير الرمادي ؟

نظرت إلى ملك كانت تقرأ مجلة نسائية ، وكانت بسمة صغيرة ماكرة على جانب فمها . أتراها كانت تسمع ؟ أتراها كانت تسخر ؟ أم أنها لم تلحظ شيئاً ؟

قمت إلى الحمام ، وأردت أن أراه في المرآة مجدداً . هاه . بريق جديد في العينين هاه . لا زال فيك بعض شباب ووسامة ، بل لو أردنا المحاباة قليلاً لقلنا ان جمال رجولة وان تكن خشنة قد نشر هالته من حولك .

ولكن البسمة البيضاء ، البسمة البيضاء ، كيف لي أن أقنعها أن في القلب ثمالة لم تستهلكها الأيام . كيف لي أن أقترب منها لأجعلها تدرك أي دفء يحمل هذا القلب . كيف لي بجعلها ترى قلبي الشاب لم يعرف سعادة امرأة منذ زمن طويل . كيف . . . . كيف ؟ .

* * *

ـ ١٤ ـ

يقولون عن النساء انهن ضعيفات أمام الاطراء ، ولكن الحقيقة وهذه يعرفها كل النساء المجربات أن الرجال أضعف أمام الاطراء من النساء ، كل أنواع الاطراء ، العقلية منها والروحية ، وحتى الجسدية ، وقليل من الرجال لا يرق لتغزل امرأة في حسن قوامه ، أو في جمال وجهه . قد يعمد البعض إلى التظاهر بالضيق أو إلى تجاوز الأمر كله ، ولكن عصفوراً صغيراً في عمق الصدر سيبتهج طويلاً أمام هذا الاطراء .

وسمعت كركرة خبيثة في أعماقي ، فها هو أدهم الذي اعتاد اغلاق سماعة الهاتف حالما يسمع مكالمة لا تعجبه . ها هو يضعف هذه المرة ويستمع ، ويستمع . ها هو يصغي بكل جوارحه إلى صوتي المتنكر انها اللحظة المناسبة لاقتناصه . لحظة ضعف وخرف وفقد ثقة في النفس . هذه المكالمة

ستبعث فيه الروح وستقوي من اقدامه ، وستجعله يرى في نفسه حسناً يجعله أكثر قرباً من حوراء .

فتح الباب وكان مالك .

— أهلاً .

— صباح الخير .

قال ، واتجه إلى مقعد مقابل ، فارتمى عليه ، وتابع .

— هه . ما الأخبار ؟

— أية أخبار ؟

— أخبار أدهم . لميس . يجب أن نعرف ما نحن مقدمون عليه . في هذه المرة لا خيار أنت واثقة أنك تستطيعين انهاء الموضوع ، أم لا ؟ نستطيع ازاحته ان لزم الأمر .

— لا يا مالك . لا داعي . سنجد طريقة .

— لميس . استثماراتنا كلها ، بل وربما مستقبلنا أيضاً . دعينا نتحر أمره فإن تأكدنا من رفضه أزلناه وجئنا بغيره .

— ماذا أفعل يا مالك . تريث قليلاً . أفكر في طريقة وأعتقد أني وجدت أولها .

— ولكن الأيام تقترب ، والعروض تقدم ، ونحن لا زلنا نتفرج .

– لو تقدمنا بعرضنا بطريقة نظامية فأنت تعرف أنه سيكون أول العروض المرفوضة .

– لميس .

– لنكن واقعيين يا مالك . كان خطأ اختيار الأرض .

– ولكنها الأرض الوحيدة الرخيصة .

– سأعترف لك بشيء صغير . كنت في البداية أعتقد أني سأؤثر عليه معتمدة على زمالتنا في الجامعة .

– زمالة فقط ؟ .

قالها بطريقته اللئيمة المازحة ، فندمت أني قلتها ، ونظرت إليه في برود .

– آسف . يبدو أني لم أختر الجملة المناسبة .

وأصررت على تأنيبه .

– ليست هذه هي المرة الأولى .

– حسن . حسن . لنتجاوز الأمر هه . إلى أين وصلت؟.

– لنعترف أني اكتشفت أن الرجل لم يذكر شيئاً من أيام زمالتنا . ربما نسيها كلها .

– أتراه يعرف شيئاً عن مشاريعنا ؟

ــ لا . لا أعتقد .

ــ وإذن ؟

ــ لا أدري ، وان كنت أعتقد أنه سئم ، قرف من كل شيء بعد ما فعلوا به .

ــ اسمعي . سأذهب إليه بنفسي وأعرض المشروع بطريقة ما . سأحدثه أيضاً عن مدينتنا الحلم التي نستعد لبنائها .

وصرخت .

ــ لا . اياك أن تفعل شيئاً كهذا . ستفسد كل شيء .

ــ ولكنا سنبلغه بمشروعنا يوماً ما .

ــ بعد أن نكون قد ضمناه . ضمنا عدم قدرته على الرفض . ضمنا استجابته لكل شيء .

ــ ولكن . ليس . كيف ؟

ــ اني أفكر .

طرق الباب وكانت حوراء . أطلت برأسها الجميل وبسمتها الحلوة تسبقها ، تسأل ان كنت مشغولة ، ولكنها حين رأت مالك أرادت التراجع .

— لا تفعلي . أنا ماض .

— لا . بل تبقى . سأعود بعد حين .

ولكنه بت في الأمر ومضى .

دخلت ، وكانت في ثوب صيفي لطيف ، تنورة كحلية لبست فوقها بلوزة بيضاء بلا أكمام كشفت جمال ذراعيها النحيلتين . قالت :

— ان كان لديك عمل كثير فسأعود فيما بعد .

رفعت الأوراق من أمامي .

— بل على العكس . لقد أنهيت حصتي من عمل اليوم . هل تدخنين ؟ .

وقدمت لها علبة سجائري ، فتناولت واحدة أشعلتها لها لترشف منها نفساً طويلاً ما كنت أظنها تدخن بهذه اللذة.

— تعرفين . أحسدك على احتفاظك بهذا الصبا والرشاقة حتى الآن .

نظرت إلى نفسها طويلاً تتملى جسدها وقالت :

— أتعب كثيراً حتى أحافظ على نفسي هكذا .

كانت استجابتها لمجاملتي غريبة ، فلم أكن أتوقعها على هذا الشكل .

قالتها وكأني أقر لها بشيء يعرفه الجميع . حاولت أن أتأكد من انطباعي ، فقلت وأنا أتشاغل بوضع بعض الأوراق في حاملة الأوراق .

— بسمتك شيء جميل . لا بد أن الرجال يعجبون بها كثيراً .

فقالت في هدوء :

— أحب أن أبدو مشرقة دائماً .

— همم — همهمت في داخلي — إذن فأنت تعنين ما تبدين عليه .

حدثتني عن متعة المرأة تحاصرها العيون ، تنتهبها ، حدثتني عن لذة الشهقات الصريحة والخفية يبديها الرجال حين تطلع عليهم على حين غرة . كانت تعرف أنها جميلة وكانت حريصة على أن تشعر الجميع بذلك ، وحريصة على أن يعلن لها الجميع ذلك . سألتها عن حياتها ومبلغ دفئها الداخلي ، ولكنها غمغمت دون أن تفصح ، ولما ألححت مستغربة أن تستطيع الحياة سنوات دون رجل

زوج – حبيب – صديق حدثتني عن المعجبين والخطاب الكثيرين الذين يحاصرونها .

– ولكن هناك واحداً معيناً له أهمية خاصة – أليس كذلك . ؟

وترددت قليلاً قبل أن تقول :

– الواقع هناك واحد يلاحقني كثيراً .

– منذ متى ؟

– منذ أكثر من سنتين .

– انه يعبدني عبادة ، ينتظر مني اشارة ، مجرد اشارة ، ولكني أتريث . وتوقفت أتأمل الجملة والتعبير (يعبدني) عبادة . ينتظر مني اشارة ، ايه . مسكين يا أدهم . هل ستنضم إلى ركب العابدين ؟

في مرة أخرى حدثتني عن رحلة لها في الطائرة وكان إلى جانبها رجل .

– شاب في الثلاثينات . طويل . أنيق . ثري .

– كيف عرفت أنه ثري ؟

ـ من حقيبته اليدوية ، من ثيابه شديدة الأناقة ، ثم عرفت أنه محام كبير في دولة خليجية . بدا معجباً منذ اللحظة الأولى . أخذ يتقرب مني وأخذت أتصرف في حياء وخجل . لم أشجعه كثيراً . أتريدين الحق ؟ لم أشجعه كثيراً ، ولكنه بعد أقل من نصف ساعة كان من الواضح أنه يعبدني عبادة ، ولا ينتظر مني الا مجرد اشارة ليضع كل شيء تحت تصرفي ، ولكني تأبيت .

ـ تأبيت على ماذا ؟ .

ـ على كل عروضه .

ـ أية عروض . في الطائرة ، وفي رحلة لأقل من ساعتين كانت هناك عروض ؟

ـ آه . لميس . لميس . لا تكوني ساذجة . انهيار الرجل واعجابه لا يحتاج إلى كثير وقت .

ـ هذا أعرفه ، ولكن . عروضه . ؟ .

ـ طلب رقم هاتفي ، فأعطيته رقم والدي وعنوانه .

ـ هاه . إذن فلم تكوني تتأبين كثيراً .

ـ كنت أريد اختباره .

— حسم ، وبعد .

— بعد أيام اتصل بي والدي ليخبرني أن شخصاً قد قدم ، وانه يريد رؤيتي في البيت وأنهما قادمان بعد ساعة .

— عظيم . حسم وبعد ؟ .

— حين لقيته بدا لي أقل بريقاً ، وبدت عروضه أقل اغراء — وقالت في مرارة — واضطررت إلى رفضه .

— ولكن لماذا ؟

— لست أدري . كان يجب أن أرفضه .

— ولكنه أنيق ووسيم وشاب وثري أيضاً .

— لم أستطع أن أخرج معه إلا مرة واحدة بصحبة والدي حين سهرنا في مطعم أحد الفنادق ، وهناك اضطررت إلى الانسحاب بعيداً والاختفاء عن عينيه .

— لا أفهمك .

— آه لميس . لا تلحي كثيراً . على أية حال لم يكن الوحيد ، بل كان واحداً من كثيرين . أتدرين ماذا كتب لي في رسالته الأخيرة ؟

— همم .

— كتب مقطعاً من أغنية قديمة تقول : وصلتينا لنص البير وقطعت الحبلة فينا .

— آه .

وأطلقت ضحكة خفيفة .

غادرتني إلى مكتبها ، وأنهيت توقيع أوراق الدوام والاجازات ، ثم اتجهت إلى غرفة أدهم . كان لا بد لي أن ألقاه ، أريد أن أتحدث إليه عن أشياء كثيرة لأرى ما جد من تطورات عليه بعد أن كشفت سر افتتانه بحوراء . يجب أن أهيّء التربة ، فوقت المناقصة يقترب ، وعلينا أن نهيىء الجو قبل أن تهرب منا إلى أيد أخرى .

* * *

- ١٥ -

انتظرت زيارتها التي اعتادت القيام بها إلى غرفتنا ، وما كنت أجهل الدافع إلى هذه الزيارات ولكني كنت حريصاً دائماً على ألا أترك لها فرصة لاستعادة الماضي ، فالحنين الذي قتلته بيدها حين تخلت ، وتركتني لما اخترت وحيداً لن أغفره لها أبداً . في البدء وحين كنت أستلقي وحيداً في الصحراء أتأمل النجوم البعيدة كانت تخطر لي وكنت أحن إليها ، ولكن حين طال الفراق مات آخر حنين إليها ، وعرفت أن طريقينا قد توازيا إلى الأبد ، وانشغلت بعالمي الجديد أبنيه ، ولكن من كان يتخيل أن يسقط كل شيء ، أن يسرق كل شيء ، وان أجبر على العودة وحيداً إلى وزارتي القديمة حيث لا عمل الا الثرثرة وطبخ المؤامرات بين الموظفين المتنازعين على مكسب أو رضا صغير .

تكررت زياراتها وتحرشاتها ، وفهمت ، ولكن الأوان كان قد فات والجسور قد غنيت ، وختم الأمر حين تقدمت البسمة البيضاء لتحوز كل فراغ في الروح وفي القلب . تقدمت لتنشر بسمتها فتضيء كل العوالم المعتمة ، تقدمت ، وتقدم معها رضا وسلام مع العالم .

وحين رأيتهما معاً وحيتني لميس من بعيد أدركت أن فرصتي ليست ضعيفة ، فها هي لميس صديقة لها ، وها هي تحييني ، ووجدتني أرد تحيتها بعرفان وسعادة وشكران بلا حدود .

انتظرت مقدمها ، ولم أنتظر طويلاً ، فلقد جاءت ولم أستطع التجاهل والغطس في كتابي ، فلقد كنت أنتظرها . سلمت ورددت التحية بلطف .

الحديث الذي كان من المعتاد أن يتبادل سرياً وشخصياً بين لميس وملك والذي قد تعلو حدته لأشارك فيه فأتجاهل بدا اليوم عادياً وبصوت يفترض فيه أن الحديث ليس شخصياً أو سرياً . كان الحديث عن التوزيع غير العادل للسيارات في الوزارة ، وقالت لميس :

— ولكن . انظري . ها هو الأستاذ أدهم مهندس قديم وخريج قديم ، وخبرة معروفة في البلد كلها ، ومع ذلك يتركونه ينتقل من الوزارة وإليها بالميكروباص .

ورمقتني ببسمة تعاطف .

— بينما يعطون مهندساً ، أو مساعد مهندس تخرج بالأمس فقط سيارة أو سيارتين أحياناً .

لم أستطع التجاوب مع تعاطفها هذا ، فقد كان الأمر خارج نطاق اهتمامي . كنت أريدها أن تتحدث عن البسمة البيضاء ، ولكن ملك أضافت :

— الحق على الأستاذ أدهم . ان أراد سيارة فما عليه الا أن يتوجه للوزير ويطلبها منه .

— لن يفعل — قالت لميس في ثقة — أنا أعرف أنه لن يفعل ، وليس من الضروري أن يفعل أيضاً ، فهذا حقه ، ويجب أن يحصل عليه دون أن يطلبه .

كان الحوار يدور بينهما وعني أنا دون أن أستطيع المشاركة فيه ، ولكن لميس بذكائها المعهود فاجأتني بسؤال قصير ومباشر .

— أليس كذلك يا أستاذ أدهم ؟

— ماذا ؟ آه . آه . طبعاً . طبعاً .

وتابعت بسخرية خفيفة .

— أخاف عليك من الديسلك يا أستاذ أدهم .

— أنا . لماذا ؟

— لم تعتد على جلسات المكاتب ، ومع ذلك فأنت منذ وقت لا تفارقها . تحرك يا رجل . قم ببعض الزيارات . ها نحن نزوركم كل يوم أو يومين ونشرب قهوتكم حتى كادت تنفد ، ومع ذلك فأنت لم تتكرم برد الزيارة ولو مرة .

كانت تتبجح في الحديث وهي على حق ، ولم يكن في الغرفة سواي وملك فبقية المهندسين كانوا قد تفرقوا كل إلى عمله الخاص ، فقالت ملك :

— سنزورك غداً وسنشرب القهوة معاً .

— يا أهلاً وسهلاً . يا أهلاً وسهلاً . سأنتظركم إذن .

تركت فنجانها بعد رشفتها الأخيرة ومضت دون أن تصافحني كالعادة كلما مضت . ما الذي تغير في هذه

المرأة ، ولكن . مالي ولها . المهم أنها على صلة بالبسمة البيضاء .

لا شك أن شربي القهوة معها سيكون بداية تعرفي إلى البسمة البيضاء ولكن . هل أريد التعرف إليها حقاً . ثم ماذا ؟ وماذا بعد ؟ .

* * *

- ١٦ -

كانت خطوتي التالية أن أشد انتباهها إلى أدهم ، ولكن . كيف ؟ هذا ما كنت أفكر فيه متجهة إلى السيارة وهي تثرثر وتثرثر ، وتنشر بسمتها الكبيرة من حولها .

هي على حق ، فمتعة حصار العيون المشتهية للمرأة متعة لا تعد لها متعة . ولكن . كم من النساء يستطعن الحصول عليها ، وما طول المدة التي يستطعن فيها الحفاظ على هذا الحصار دون أن يتورطن فيما يجعل الآخرين يبتعدون .

ما إن أدرت المارش حتى بدا أدهم متقدماً ينظر في اتجاهنا . أشار بيده بالتحية المثقلة بالود ، فأشرت له بيدي محيية وأنا أتابع اتجاه نظراته . كانت النظرات لها . نظرت في المرآة. من الواضح أنها لمحت التحية ولكنها تجاهلتها ، وأشعلت سيكارة .

— شخص عظيم .

قلت والسيارة تدور :

— من ؟

— أدهم هذا . في السنة الماضية قمنا برحلة سياحية شهدنا فيها المدينة التي بناها .

— بنى مدينة ؟ .

قالت في دهشة خفيفة .

— وأية مدينة. انها المدينة التي حلمنا بها صغاراً ، بنيناها حجراً حجراً ، وجمعناها نافذة نافذة ، زرعنا أشجارها وأقمنا حدائقها ، بنينا رياض الأطفال فيها ، ونشرنا الريح في شوارعها ، ولكنا كبرنا، وأبى، نضجنا. وأصر على الشباب ، انهارت مدينتنا فلم يبق من شجرتنا إلا الجذع اليابس دون أوراق ، وحتى الجذع — قلت ساخرة — لو تفحصته جيداً لاكتشفت نخره ، أما هو فقد ظل شاباً يبني تلك المدينة لا يبالي .

— عن أية مدينة تتحدثين ؟

سألت في دهشة حقيقية .

— آه — قلت راجعة إليها — من الصعب أن أحدثك عنها في لحظات .

— ولكني أراه دون سيارة !

صعقت لتعليقها ، فنظرت إليها هنيهة ، ثم تابعت سيري . أهذا هو تقويمك لأهمية الرجل وتابعت في حزن :

— انهم يعاقبونه .

— على ماذا ؟

قالت في براءة لم تحس بالاضطراب الذي بعثه في قولها .

— أووه . . . . على أشياء كثيرة .

— آه . هؤلاء الرجال . لا أفهم بعضهم أحياناً . لا أفهمهم أبداً .

— ماذا تعنين ؟

— لا شيء . لا شيء .

كنا قد اقتربنا من بيتها ، فهدأت السرعة لانزالها ، وقررت إلقاء قنبلتي بسرعة .

— سأعرفك إلى أدهم غداً .

— غداً . لماذا ؟

– سيأتي لشرب القهوة عندي وستأتين .

– لا. لا أظن هذا ضرورياً .

– اسمعي هذا الرجل يمكن أن يصبح أهم شخص في الوزارة بسهولة . كل ما عليه أن يفعل هو أن يقبل .

أحسست بها تبتلع الطعم ، فتابعت :

– وعلى أية حال ، فهو انسان ظريف . سنشرب القهوة معاً ، وسيحدثنا عن مدينته الجميلة وكيف بناها .

– همم . لا بأس .

صفقت باب السيارة ومضت . درت بالسيارة عائدة . ها هي الأمور تسير بانتظام وسنرى كيف ستخرج من قوقعتك يا أدهم . ستخرج عارياً كحلزونة تكسرت عنها القشرة ، ولن تستطيع الاحتماء مني بالصمت والكتاب الضخم والنظارات العتمة . . .

* * *

- ١٧ -

قالت في رقة خجلة :

ــ سمعت عن المدينة التي بنيتها .

ــ مدينتي ؟ ــ قلت مندهشاً ــ من حدثك عنها ؟

ــ أهي سر حتى تحتاج إلى من يكشف عنه ؟

ــ أنا من حدثها عنها !

قالت لميس ، ونظرت إليها في عرفان . إذن فقد حاولت ترك صورة طيبة عني لديها ، وتابعت لميس :

ــ ألا تحدثنا عنها ؟

ــ آه . ليس من المعقول أن نتحدث في مواضيع كهذه أمام حسناوين مثلكما . لا. من الأفضل أن نتحدث في أشياء أخرى :

ــ أكانت مدينة كبيرة ؟

سألت حوراء ثانية .

ـ إلى حد ما .

ـ أين تقع ؟

ـ هناك .

وأشرت إلى الشمال البعيد .

ـ أفيها حدائق وسينمات ؟

ـ بالطبع .

ـ مسارح ومراقص أيضاً ؟

ـ فيها كل شيء .

أجابت لميس بسرعة .

ـ ليتك تأخذنا إليها يوماً . ما رأيك يا لميس . من المسؤول عن تنظيم رحلات الوزارة ؟

ـ آه . هذا أمر معقول . ربما فعلناها مرة . أليس كذلك يا أدهم ؟

نادتني بأدهم دون أستاذ لأول مرة . انها ترفع الكلفة معي . آه . ما كان لهذا ان يحصل لولاك يا حوراء ، لولا بسمتك البيضاء .

تقدم الحديث واتسع ، وامتلأ المكان بهجة جديدة ، بهجة انشاء المدن وشق الشوارع وزرع الأشجار وفتح

الأنفاق وبناء الجسور فيها واسكانهاشباناً وفتيات حلوين ، وجعل الحياة تخلق من جديد . قالت :

ــ أحب الرحلات . أحب رؤية العالم .

وانفتح العالم بأركانه الأربعة ، بأقانيمه الأربعة ، ببحره وجبله ، بصحرائه وغاباته . انفتح ليتجسد حياة جديدة وخلقاً جديداً . ما أجمل تشكل العالم الجديد وتسميته اسماً اسماً . ان تخلق من العدم عالماً ثم تسميه . أنت نهر فكن نهراً ، أنت بحر فكن بحراً ، أنت جبل فكن جبلاً ، أما أنت يا علة العلل ويا أصل الأصول فكوني المرأة .

وضحكت حوراء فابيض العالم واحور . قالت :

ــ أحب الرجل القوي .

ونظرت إلى نفسي فوجدت أصابع طويلة وذراعين مهزولتين ، ولكن لميس قالت :

ــ أجمل الأقوياء من كانت قوتهم في رؤوسهم .

وتورد العالم فرحاً حين قالت حوراء :

ــ هذا صحيح !

وتقدمت المدينة ــ الحلم البعيدة بناء وحدائق ، بحيرة

وأنهاراً ، مدارس ومخابز ، رجالاً ونساء ، أطفالاً وطفلات . تقدمت من بعيد فأحاطت بنا بهجة وهناءة . طمأنينة وأماناً . قالت :

— أتمنى أن أزور هذه المدينة .

— نفعل قريباً .

— ولكن . لا سيارة لديك !

قالت في حسرة ، وأريد العالم أمامي .

وقالت لميس بسرعة :

— السيارات كثيرة في البلد . يمكننا استئجار ما شئنا منها .

— لا . أحب السيارة الخاصة . متعة أن تملكي قيادك الخاص ، متعة أن تسيطري على العالم بالسيارة شيء جميل .

ضاق العالم حتى صار سم ابرة ، ، ولكنها ضحكت فافتر فرحاً . قالت :

— لست أدري لم لا يعطيك الوزير سيارة ؟ ألا تستحق واحدة ؟

وأسرعت لميس تدافع عني . ما أرق هذه المرأة يبدو أن شيئاً فيها قد تغير . قالت :

ـ ليس من الواجب أن يطلب رجل كأدهم . على الوزير الذي يعرف من أدهم أن يعطيه حقه دون سؤال .

ـ ولكنها أضافت في لا مبالاة :

ـ لا حق يعطى دون سؤال هذه الأيام . لو كنت مكانك لما رضيت ألا أحصل على سيارة .

وتنوع الحديث ودار في ممالك ومسالك كثيرة . تحدثنا عن الموضة ، وعن الملابس التي تصل حوراء أولاً بأول من أخيها في أميريكا ، ومن خالها في باريس ، تحدثنا عن السهرات ، عن العطور عن الرقصات ، عن عوالم كنت أتحاشاها ولا أسمع عنها الا نتفاً أقرأ بعضها في الصحف ، وأسمع البعض في أحاديث جانبية لا أهتم بها ، ولكن الأمر بدا لذيذاً ، عالم من مخامل وعطور ، من دفء ليلي وثياب مكشوفة الصدور والنحور ، عالم من رقصات شابة تجعل الدماء تنتفض في الشرايين ، والقلوب تضج في الصدور ، ورائحة عرق العافية تسكر الطرفين ، جئير المغنيين وهياج الأجساد ، عالم أرضي لست أدري أين كنت منه قبل ان ينكشف العالم عن بسمتها البيضاء لتشلني

إلى الأرض فأحسُ ثقلها ولذة ملمس حصاها على الأقدام العارية الخارجة من ضيق الأحذية .

آه يا حوراء . أي عالم خرجت بي إليه . لم أكن أصدق أن للثرثرات المجانية متعة قبل أن أراك ، لم أكن أعتقد أن هذراً كسقسقة العصافير يمكن أن يلذ لي فأستمع إليه ساعات وساعات ، ولكن . ها هي سقسقة العصافير من حولك . أليست شيئاً جميلاً . هل تستطيع أن تميز فيها نغمة أو صوتاً ، معنى أو اشارة . ان هي الا كتلة صوتية مستطيلة تقول ان الطبيعة والحياة مستمرتان . أفلا يكفي هذا للمتعة ، فلم تطلب إذن منها أن تكون شيئاً أمتع من العصافير ؟

* * *

- ١٨ -

تسللت الموسيقا خافتة إلي ، ففتحت عيني ورأيت تسللات نور متسربة عبر الأباجور والستائر ، وأدركت أن الساعة الثانية عشرة ، ويجب أن أستيقظ . تسللت الموسيقى من المسجلة المربوطة إلى ساعة الكترونية عدلتها بالأمس لتوقظني في الثانية عشرة فاليوم الجمعة ، ويجب أن أنام وأريح جسدي المتعب كثيراً طيلة الأسبوع .

تسللت الموسيقى ناعمة لتخرجني من تلك الحالة التي أعيشها وأحبها ، ان تكوني بين اليقظة والنوم ، تذكرين خاطرة ، ثم تهومين ، فإذا بها تتحول حلماً لا تلبثين أن تخرجي منه ، فتستيقظي قليلاً ، ثم تذكري إمرأة أو رجلاً ، جملة أو حواراً ، ثم يغلب النوم ، فإذا بالأحلام مكيفة حسب الطلب ولكن الموسيقى تتسلل لتقول : إن الأوان قد آن للاستيقاظ ، وسمعت حركة مريم في المطبخ . لقد سمعت الموسيقى ، ولا بد أنها تعد القهوة .

تمططت قليلاً في السرير الدافىء ، ثم استندت على كوعي لأستند إلى وسادة الظهر حين سمعت طرقتها على الباب .

ـ ادخلي .

وضعت صينية القهوة جانباً ورفعت الستائر .

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .

رشفت الرشفة الأولى حين هاجم النور الغرفة ، فضيقت عيني أحميها من النور .

ـ ألم يهتف أحد ؟

ـ الأستاذ جميل فقط .

ـ همم .

قلبت شفتي وأنا أضع الفنجان حين رأيت المجلة ثانية ، وتذكرت . كانت الوصفة رائعة ، وقررت أن أقوم بها اليوم كاملة .

ـ هل الحمام جاهز ؟

ـ كالعادة .

قالت مريم في حيادية .

نظرت إلى وجهها الصابر السمين ، وحمدت الله أنها لا تزال لدي . انها ما تبقى لي من أبي ، وعاهدت نفسي ثانية أن أحسن معاملتها وأزيد من أجرها ، ولكن . كيف . دخلي لا يكاد يكفيني وأنا أسحب من الرصيد الذي تركه لي أبي . يجب أن يحدث شيء قبل فوات الأوان ، وإلا ، وإلا ماذا ؟ . . . . . .

نفضت الفكرة وأنا أقوم من السرير . حملت المجلة ومضيت إلى الحمام كانت التعليمات واضحة ، فتناولت المسجلة الصغيرة ووضعت فيها شريطاً لميراي ماتيو ودخلت .

لمست الماء في المغطس . الدفء المناسب . مريم هذه كنز . كنز حقيقي تعرف ما أحب وما أريد . يجب الحفاظ عليها ، فما أكثر من يحسدني عليها ويتمنى خطفها مني .

زلقت الروب وعلقته إلى الجدار بينما انبعث صوت ماتيو . اني أحبها هذه المرأة . انك تحسين أنها لا تغني ، بل تقول . أضفت بعض الشامبو إلى المغطس وانزلقت فيه همم . أية متعة . الماء الدافيء يداعب الجسد يتسلل إلى أركانه فيثير رغبات ومتعاً واسترخاءات همم .

فتحت المجلة (**دلكي جسدك بخفة ونعومة ، وبالأخص من ناحية القدمين فارتداء الكولان طيلة أيام الأسبوع يزيد من جفافهما**) تلمست قدمي. صحيح لقد جفت عند العقبين . دلكتها قليلاً بالفرشاة وعدت إلى المجلة (**ننصحك بإستعمال بودي ميساج**) أف . لقد نسيته هذه المرة . كيف نسيته ؟ لا بأس ولكن ، وتسللت الفكرة خبيثة : أحقاً نسيته، أم أردت توفير ثمنه؟ ولكن ... ، وطردت الفكرة بعيداً . وعدت إلى المجلة (**حاولي أن تمرري يدك على كل مسام جلدك ، من رأسك حتى أخمص القدمين . ركزي كثيراً على أصابع اليدين والرجلين ، وعندما تشعرين بأن جلدك أصبح لماعاً ، ارتدي احدى بيجاماتك القديمة ، واستلقي قليلاً حتى يتشبع جلدك بالكريم**).

اللعنة . لم أستحضر الكريم . لا بأس ، فلأسترخ قليلاً . وتسللت حفلة الأمس ، ورأيتهم بعيونهم الراجية وأيديهم المتوسلة ينتظرون موافقة على مراقصتهم حين رن الهاتف بعيداً . أهو الهاتف ؟ صحيح . كان الهاتف وسمعت طرقتها على الباب :

— من يا مريم ؟

– جورج الجواهرجي .

– آه . جورج . شاغليه قليلاً . سأخرج للحديث إليه .

لبست برنس الحمام بسرعة أجفف جسدي ، وأسرعت إلى غرفة النوم .

– أهلاً جورج .

– هه ماذا عن اليوم . هل ستمرين ؟

– بالطبع . ألديك شيء جديد ؟

– خاتم سوليتير رائع مع طاقمه الكامل .

– زفير ؟ أرجوك يا جورج أموت بالزفير .

– زفير ياستي ، ولكن ستبحبحين النقود قليلاً . هه؟

– ان كان زفير ، فلا بأس .

– زفير يجنن . متى تمرين ؟

– همم . كم الساعة الآن ؟ (وقبل أن يجيب) الخامسة . معقول ؟ .

– معقول . سأنتظرك .

– شكراً . شكراً جورج .

– العفو يا ستي .

وضعت السماعة . أبحبح النقود ؟ ألا يشبع هذا الرجل . مئة ليرة أجرة كل ليلة ولا يكتفي ؟

لا . يجب أن تشكريه يا حوراء ، فكم واحدة تعرفينها تستطيع أن تلبس ما تلبسين من الجواهر ، ولكن . مئة ليرة أجرة لليلة ويريد أن أبحبحها ؟ حوراء . حوراء طقم زفير . أتعرفين ما ثمنه ؟ أعرف . أعرف ، أكملت تجفيف نفسي ، وأخذت في الاستعداد لسهرة الليلة ، وتخيلت نفسي في ثوبي الجديد المرف مع طاقم الزفير . آه . همم . حوراء . حوراء . ستقتلين الجميع ، وخاصة الفتيات . زفير . ما أروعك يا جورج . ما أروعك !

استلقيت في السرير ثانية أنتظر تمام جفاف جسدي حين رن الهاتف ثانية وكانت لميس . عجيب ما الذي يجعلها تهتف لي ؟

— ما مشاريعك الليلة ؟

وفهمت . لديها مشروع سهرة ما ، وهربت بسرعة .

— مرتبطة بموعد هام جداً .

— خسارة . كنت أتمنى لو نسهر معاً .

— لا بأس . الأيام قادمة . هه ؟ .

– طبعاً . واثقة أنك لا تستطيعين التخلص من موعدك ؟

– موعد هام جداً يا لميس ، وفي الحقيقة أشكرك على سؤالك عني ، ولكن . . . . تعرفين .

– حسن . نتفق على موعد آخر . في الوزارة ربما هه ؟ .

– لا بأس .

وضعت السماعة ، وفجأة قفزت صورته أمامي بطوله الضخم وعينيه الحزينتين العميقتين المختفيتين وراء نظاراته الطبية العتمة ولحيته السوداء . في هذا الرجل شيء غريب ، ولكن . . . . لا . . . . . مالك ولمثل هذا الرجل يا حوراء ؟ ولكن . . . حوراء . . . . تذكري . تقول لميس انه يمكن أن يصبح أهم شخص في الوزارة . هه ، وما يعني أهم شخص في الوزارة ؟ ما أريد شيء آخر ، وماذا ان لم تحصلي على الشيء الآخر . تذكري . رصيد أبيك في البنك يتبخر بسرعة هه . (قلتها في غيظ) سأسافر إلى أخي في أميريكا . تسافرين إليه ؟ وتظنين أنه سيكون سعيداً بمقامك معه . أنت تعرفين كيف استقبلك في المرة الأخيرة . ان له زوجه وحياته الخاصة .

أوو وف ماذا أفعل إذن . هل أعلن في الاذاعة والتلفزيون اني في حاجة إلى زوج غني .

اللعنة .

قمت إلى المطبخ لأرى أي افطار أعدت مريم لي .

صببت الحليب في الفنجان حين رأيته أمامي ثانية . أهم شخص في الوزارة ويعبدك ! هل رأيت الحب في عينيه ، وماذا بعد ؟ كلهم يبدون هكذا قبل أن يعرضوا مطالبهم ، رشفت الرشفة الأولى من الفنجان ، وتذكرت الأمس . كانت تجربة رديئة . كيف سمحت لهذا أن يحصل ، ولكنها العادة اللعينة حين أردت إلقاء نظرة أخيرة على ماكياجي في مرآة الحمام ، ولم أنتبه إلى الوقت ، وإلى أنهم جميعاً قد مضوا . خرجت إلى الباحة ، ولكنهن جميعاً كنا قد مضين بسياراتهن ، لميس وسهير ونشوى ، ولم يتبق في الساحة إلا الميكرو يلملم ضاربات الآلة الكاتبة وصغار الموظفين المتأخرين ومن وراء الزجاج لمحته يسند رأسه إلى النافذة يراقب ما لست أدري . أحسست بغيظ يدفعني إلى شده من شعره . أحمق . أحمق . ما الذي

يضطرك إلى هذه المهانة . أنت لا تحتاج إلا إلى كلمة فإذا بالسيارة بين يديك وعندها . . . . .

وأمسكت الكلمة حتى عن نفسي .

انطلق الميكرو مبتعداً وخرجت من مخبئي في مدخل الوزارة المعتم خيفة أن يراني أنتظر من يوصلني ، وخرجت أبحث عن تاكسي . ابتعد الميكرو ، وتوقفت أمام الوزارة أنتظر تاكسي وألعن حمقه وعدم استطاعتي شراء سيارة حتى الآن .

صببت فنجان شاي آخر ونظرت إلى أصابعي ...... ستكون جميلة جداً مع السولتير وطاقمه الزفير .

* * *

ـ ١٩ ـ

في البدء كانت وكان العالم . في البعد كانت وزال العالم . اضمحل وصغر ، ضئول وتلاشى حتى لم يعد هناك الا أرض وسماء وغابات وجبال وضحكة واسعة كبيرة بيضاء .

قالت :

ـ أحب الرجل يركب سيارته فيمسك بمقاليد العالم ، وأحب أن أجلس إلى جواره فأرى العالم يتداعى تحت أقدامنا .

جلت في الشوارع المختنقة بالسيارات من كل الأصناف وتذكرت المدينة ، تذكرت البولدوزرات والتراكسات والشاحنات والمرسيدسات : كلها كانت لي حين كنت أبني مدينتي مرضياً عني ، ولكني ها أنا الرافض المرفوض ، المؤمن المكفر ، المحروم من سيارة أدخل بها السعادةعلى

قلبها . قالت :

– ما أحلى الرجل يمسك بمقود سيارته ، فتحسه يمسك بعنان الأرض والسماء معاً .

وقالت لميس هامسة :

– لو شئت لكان الأمر سهلاً !

وتذكرت قول الوزير :

– لن أنسى رفقة الدراسة ، وسأظل أعطف عليك .. ان احتجت إلى شيء فلا تتردد في طلبه .

هل أمضي ؟ هل أطرق بابه لأطلب سيارة . ولكن . . . . ما سيقول لو فعلت ؟ كيف سيفهمها ؟ كيف سأسوغها ؟ كيف سيفهمونها ؟ ولكن ما السيارة في المحصلة الأخيرة ؟ آلاف وآلاف من السيارات المنثورة والموزعة فهل ستكون سيارتي الجريمة الوحيدة ؟ ولكن . لا . ليس الأمر أمر جريمة . إنه أن تمضي إليه . تطرق بابه ، تتخلى عن حقك ، تتخلى عن غضبك لانتزاعك من المدينة ، تتخلى عن تأنيب ضميرهم لما ارتكبوا في حقك ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل سيارة . طظ . . . . . ولكنها حوراء يا أدهم . حوراء البسمة تطلب سيارة ، فهل تحرمها من هذا الحق ؟ ، حوراء . . . . وانتشرت بسمتها

الواسعة البيضاء فغطت العالم ، ورأيت وجهه الحنون : إن احتجت إلى شيء فلا تتردد في طلبه . وانتبهت في خوف إلى أني قلت : وجهه الحنون . . . . . وأحسست تسلل خوف إلي . هل أصبحت أرى وجهه الحنون ؟ أي تغير يتم في حياتك يا أدهم .

ولكن . حوراء تريد السيارة ، ويجب أن أحصل لها على سيارة . كيف . كيف . . . . كيف . . . . .

رفعت رأسي أنظر إلى ملك ان كانت سمعت تساؤلي المجنون ولكنها كانت تنسج صوفها في هدوء لا تحس بحركة في العالم خارج أصابعها الرتيبة .

نظرت إلى الساعة . لقد انتهى الدوام ، فتنفست الصعداء ، نزلت إلى باحة الوزارة وتسللت إلى شجيرات الدفلي أراقب أزهارها الوردية ، ورأيتهما تخرجان معاً ، تسقسقان وتهزلان وكأن لا هم في العالم ولا حزن ، وأحسست بالغيرة . آه . أيتها الغيرة ، يا ثعباناً أصفر الرأس يتسلل إلى القلب فيعتصره برفق في البدء حتى إذا ما تمكن منه شد عليه حتى تحس بالدم يندفع إلى العينين فيحيل الرفق والهدوء فيهما شهوة دمار لا تقاوم .

آه أيتها الغيرة . أيتها الريح الصفراء تنسحب على العالم فتزيل خضرته وتمحو نضرته ، وتطفيء نجومه وتغطي كل بريق فيه .

آه أيتها الغيرة يا ملاكاً يقعي على الكتفين ويمسك بخناق الروح ويضغط حتى لا ترى في العالم إلا أصابع تتشنج باحثة عن عنق للخنق .

آه أيتها الغيرة كيف أمكن لك أن تتلبسي كائناً لم يكن يأبه للعالم فجعلته يطمح إليه من أشد دركاته وطاءة .

فتحت لميس باب السيارة . فانزلقت حوراء إلى جانبها ، وتخيلت من موقفي ألق الساقين الأبيض تتكشف عنهما التنورة السوداء ، تخيلت الأنامل في (التابلوه) تبحث عن علبة السكائر . ثم ضغطتها على القداحة الكهربائية ونظرها إلى المرآة الصغيرة فيها تراقب تسريحة شعرها ، وما تم فيها منذ خروجها من المكاتب إلى المرآب ، رأيت الأظافر المطلية بالأحمر تداعب حبة صغيرة تكورت فوق الوجنة ، وسمعت نكتة تلقيها لميس ، ورأيت قهقهة تهز حوراء في مقعدها ، وتمزق القلب . أتراهما تضحكان

مني ، ولكنهما لم تكونا تريانني فقد كنت أختبئ وراء شجيرة دفلي أراقب خروجهما .

تحركت السيارة ، ورأيت ذراع لميس تستند إلى نافذتها في ثقة ورأيت ذراع حوراء تمتد من النافذة الأخرى تشير إلى اليمين لتنزلق السيارة إلى اليمين وتختفي .

آه يا قبضة الموت الثقيلة ما أشد ما تضغطين على قلبي .

* * *

ـ ٢٠ ـ

أحسست شيئاً يتغير فيه يوماً اثر يوم . أخذت أغصان جديدة تنبثق عن الجذع القديم . أغصان خضرة وورق ، استطالات ونموات لم أعهدها فيه سابقاً . أخذ يهتم بثيابه وأحذيته وجواربه . ومع ذلك فقد ظلت ثيابه موضة قديمة.

أدهم جديد أخذ ينمو أمام عيني . وبدأ شباب جديد يدب في هيكله القديم . صار يكثر من التردد علي ، وأخذ يفتح لي قلبه الذي انغلق طويلاً ليس أمامي فحسب ، بل وأمام الجميع . عرفت الخوف الذي كان يحسه من المرأة فأنآه عنها ، عرفت الربكة التي كانت تعروه في حضورهن ، فاستغنى عن هذا الحضور بمجمله .

حدثني عن اله ليلي بارد تسلل إلى حياته بعد خروجه من المدينة التي بناها . حدثني عن أصابع ثلجية تتسرب إلى الحياة ، فتحيلها إلى هيكل هلامي دون ملامح إلا الملل والسأم والقرف والاشمئزاز وانعدام الدافع .

حدثني عن رغبات الهجرة لعل تغيير المكان يغير من هلامية الأشياء المحيطة . حدثني عن عالم من الاحباط وخيبات الأمل ، عن مرارة العبثية في الأشياء ، حدثني عن اكتشاف اللون الرمادي القبيح ، وكيف يسيطر على الأشياء فيخفي بياضها ، ويمحو سوادها ، فيتحول العالم إلى محيط من الرماد الرصاصي الزلق الخامد الفاقد لكل لون أو طعم أو حرارة أو رائحة .

حدثني عن انبثاق النجمة المفاجيء في ليل الغيم المعتم ، عن السعادة التي تحس لدى رؤية البريق في السواد الرصاصي حين ينفجر عن نجمة بيضاء .

حملني معه إلى أيام كنت أشتهي أن أسمع فيها مثل هذه الكلمات ، ولكني لم أكن أستمع إلا إلى حركات الأصابع النهمة تاريخياً تحاول أن تتحسس أدق أحاسيسي بأصابع خشنة شبقة تتغلف بالحس الرقيق ، وتخفي جوعاً حيوانياً بلا ملامح أو أطراف أو معالم تدل عليه .

آه يا أدهم لم اختلف طريقا حياتينا بهذه الحدة ؟ ولكن . لا ما كنت أظنك تنبثق عن كل هذا الكلام الحلو

لو لم تقاس كل هذه المقاساة . كان يلزمك سنوات من المرارة والاحباط والاستبطان وخيبات الأمل حتى تستطيع الوصول إلى هذا العالم الداخلي الثر واستعراضه أمام عينيك في جرأة ومقدرة ومعرفة .

بدأت أخاف عليه انزلاقه وراءها بهذه الحدة ، ولكن . أهو الخوف عليه أم الغيرة من اندفاعه وراء الأخرى ، ولكن . لا . لقد أزلت من نفسي هذه الأمور منذ أمد طويل . هناك هدف يجب الوصول إليه ، وطريق الوصول إليه الآن هو حوراء .

ابتعدي أيتها الغيرة، واختفي أيتها المشاعر النسائية كلها ، ولتستمر اللعبة .

كان يجب أن تري ملامحه وكيف تتغير ، والسعادة كيف تعرش على وجهه حين تمر لتناول قهوة معنا ، أو حتى لتستعير مجلة ، أو لتدخن سيكارة ، ولم تكن حوراء غبية ، ولكن لا حاجة بالمرأة إلى كثير ذكاء حتى تدرك تعلق الرجل بها ، وأخذت أخاف أن أسمع كلمتها التاريخية — انه يعبدني عبادة ، ولكني أفكر — كنت أتوقعها وأخافها ، ولذا فقد توقفت تماماً عن اثارة أي من هذه

المواضيع معها أو معه ولكن . كان من الواضح ان تفاهماً جديداً أخذ ينمو بينهما ، وأخذت أخاف هذا التفاهم على أدهم . كنت أدرك بشكل غير منطقي أن انساناً كأدهم هو انسان دون جلد يكفي أن تلمسه بأصبعك حتى يدمى ، فكيف لو تعرض لحسن قاس نرجسي كحسن حوراء .

ولكن . ما العمل . كانت تجربة مراقبة نمو نبات جديد أمام عيني شيئاً ممتعاً فعلاً ، بذرة لم أعرف نوعها حين زرعتها فلا أعرف مستقبلها ، ولكني أعرف أن هناك بذرة أراقبها ، فأرى احتقان الأرض تختنق بتمددات البذرة تخرج من ليلها الأسود الطويل تتمدد ، تتمدد ، ثم تنفجر ذراعاً خضراء صغيرة ترفع أصابعها إلى الشمس تستجدي النور الذي انحبست عنه طويلاً في ليل الكمون الأسود تتلمس النور ، تشربه في نهم ، ثم تتشكل أوراقاً ، فأغصاناً ، فأزهاراً وثماراً .

ولكن أية نبتة ستنبثقين عنها أيتها البذرة المختنقة في ظلام التربة الأسود ، عن أية زهرة ستنفجرين ، بل وعن أية ثمرة ؟ ثمرة الهناءة أم ثمرة الزقوم ؟

آه ما أحلى قراءة الغيب، وما أمره أيضاً اذ تعرف كل شيء قبل وقوعه فتفتقد لذة الكشف والمفاجأة قالت :

– أحب الرجل يركب سيارته الخاصة ، أحب لذراعه أن تستند إلى نافذتها في ثقة ، أحب منظر كفه تسيطر على المقود فتسيطر على العالم ، أحب نظرة القوة في عينيه يتجاوز السيارات الأخرى ويقطع المنعطفات ، ويزدرد الاوتوستر ادات . أحب نظرات الغيرة في عيون الأخريات يرمقنني وأنا أركب إلى جواره في سيارته السريعة لا يأبه بهن ، فهو لا يحفل ولا يهتم إلا بي .

ورأيت لمعة وانكساراً في عينيه . ترى ماذا يخبىء ؟

* * *

— ٢١ —

وهمست لميس لي جانباً ، وكنا وحيدين في مكتبها ، ولست أدري ما الذي جعلني أفتح لها قلبي . هذا القلب الذي لم ينفتح لها حتى حين كنا فتيين ، وكانت هناك أحلام وامكانات . كنت أتساءل عن امكانية اعجاب حوراء بي . قالت :

— ولم لا ؟

— ولكن الكهولة والشيب وغضون السنين .

— لكل سن حقها يا أدهم ، أم نسيت كمال الرجولة .

وازدهرت وردة في غابة الظلام . كمال الرجولة ؟ ولكن . . .

— ولكن لست أدري كيف أقولها لك ، ولكن . يجب أن تنتبه قليلاً . لكل امرأة مطالب ورغبات خاصة ، وللمحبوب أن يتدلل على حبيبه .

وفهمت .

وانتشرت السيارات أمام عيني في كل مكان ولأول مرة أصبحت أهتم بأنواعها وألوانها وسنوات صنعها ومزاياها . أصبحت أستمع باهتمام وأحاول أن أفهم ، وما كانت السيارة تعنيني في السابق إلا أن لها عجلات أربع وسائقاً ينقلك إلى حيث تقصد .

أما الآن . . . . قالت :

ـ أحب الرجل القوي يدير العالم كما يدير سيارته .

ولما لم أكن أستطيع ادارة العالم ، فقد توجب أن أدير سيارة ، وقالت لميس مختفية وراء دخان سيكارتها :

ـ الوزارة مملة في الصيف . حبذا غداء في الغوطة الآن .

وأضافت حوراء :

ـ أنت على حق ، وبدلاً من هذه الجدران الأربعة والمكاتب القميئة لو جلسة تحت الشجر والنهر يجري من تحتنا .

وأضافت لميس :

ـ أعرف مكاناً لا يمكن تشبيهه إلا بالجنة ، مكاناً

معزولاً عن بقية الغوطة ، مقصف جديد لم يهتد إليه الكثيرون شجرات سدر أربع كبيرة ، وجدولان يحيطان بالمكان ، وجزيرة داخل هذا الماء المحيط . برودة جميلة ، وخدم لا أرق ولا أسرع .

ووجدتني أسرع بالعرض :

— فهيا بنا إذن . نستطيع أن نمضي من لحظتنا .

وقالت حوراء :

— ولكننا بحاجة إلى سيارة .

وقالت لميس :

— للأسف فمحرك سيارتي سيء ولا يستطيع صعود المرتفعات ، لا بد أن نصلحه قبل ذلك .

وقلت أسهل الأمر .

— نستطيع استئجار سيارة .

ولكن حوراء قالت باترة :

— لا أحب السيارات المستأجرة ورذالة السائقين . أحب سيارة خاصة تقودها حيث شئت وتنتظرك حيثما أردت .

ورأيت نظرة خاصة في عيني لميس وفهمت .

نزلت إلى مرآب الوزارة سيارات . سيارات .

حمراوات . زرقاوات . سوداوات . ألوان مختلفة . مقاسات مختلفة . موديلات مختلفة . ولكن . يجب أن تطرق بابه أولاً . أطرق بابه ؟ ورأيت وجهه الحنون .

— إن احتجت إلى شيء ، فلا تتردد في طلبه .

لا . لا يمكنني أن أفعل ذلك ، ولكن . حوراء . . . . البسمة البيضاء . . . . ولكن . . . . أمضي إليه ؟ أنا أدهم الأدهمي المنتزع من حقي ومدينتي وجنتي . أمضي إليه . . ولكن . . ولكنك تريد العودة إلى المدينة . أليس كذلك ؟ المدينة ؟ دون حوراء ، وأحسست الغصة . لا . ستكون جافة من دونها .

ولكن . تذكر يا أدهم . حلم الصبا ، بناء الشباب وأرق الليالي . . . . ولكنها حوراء ، وانتشرت بسمتها الكبيرة البيضاء ، ورأيت المقصف وسدراته والماء المحيط به وحوراء الرقيقة تطلق ضحكاتها السعيدة ، وتقدم وجهه الحنون ، وبهدوء اختلط الأمر علي ، فلقد امتزج وجهه الحنون بضحكتها البيضاء ، ورف القلب واهتز وتر في الروح ، وأدركت أن حوراء يجب أن تحصل على السيارة .

- ٢٢ -

متعة المتع أن تري الكائن الذي تصنعينه يتشكل بين يديك ، أن تري المخلوق الذي تنقلينه من حالة العماوة إلى حالة التشكل ، من العرض إلى الجوهر ، من مضطرب الغباء إلى انتظام الذكاء والرقة والتفاهم .

كنت أراه يفتح عينيه لمسة فلمسة ، كنت أراه يرى العالم ملمحاً فملمحاً . كنت آخذ بيده برفق أخاف أن ينزلق ، وما أسهل أن ينزلق إلى كينونته السابقة ، إلى عقله الداكن واحتمائه وراء درع السذاجة والقناعة والرضا . كنت أحمله بهدوء إلى العالم الحقيقي ، العالم المملوء دماً وصراعاً ومخامل وسهرات ومتعاً لم يكن يفكر فيها .

أردته على الخروج من قوقعته الساكنة إلى ضجيج العالم الممتلىء حيوية وعدواً ، بهجات وصراعات ، وكانت حوراء يدي الطويلة والقوية والفتية والحية ، كنت أراه

يتكسر تحت وقع ضحكتها فأحزن أحياناً إذا أذكرنا شباناً ، ثم أشعر أني يجب أن أسير في هذا الدرب حتى نهاياته .

قالت :

– أتمنى أن نتمشى قليلاً في طريق الصالحية .

وقلت :

– لا بأس .

ومضينا . كانت تتوقف طويلاً أمام واجهات المحلات تجرني معها إلى الداخل ، وتحيي في رغبات قديمة ، وفرحاً كنت قد حاولت أن أنساه ، فرح تلمس الثوب الجديد بنعومته الجافة ، وتكسره تحت الأنامل ، فرح قياس الثوب الجديد ، فرح رؤية انسان جديد في الثوب المقيس ورؤية السعادة على وجهها تنظر إلى نفسها وقد خلقت خاتماً جديداً في كل ثوب تقيسه .

كانت نظرات البائعين فرحة بمرآها في الثوب تقيسه ، ثم ترفضه تريد غيره ، وكنت أعجب فأنا أعرف لؤمهم ، فهمهم الأساسي البيع ، ولكنهم كانوا يفرحون لمرآها ، وكأن الثوب يكتسب حين تلبسه لمسة جسدها .

قلت لها ونحن نأكل قطعتي كاتوه .

— آسفة من أجل حياتك الجافة .

فقالت وهي تلعق بقية من الكريمة عن جانب فمها بلسانها الأحمر الصغير .

— حياتي ليست جافة . من قال ذلك ؟

— وتظنين الحياة دون شريك يسندك ، يمشي إلى جانبك ، تستندين إلى ذراعه ، تحسين دفء جسده إلى جوارك ، يحميك من العيون حياة ؟

ولكنها قالت :

— حياتي مليئة . انظري .

ونظرت . كانت أزواج من العيون تراقبها من كل جانب ، بعضها ينظر إليها في المرآة رزيناً ، والبعض ينظر إلينا في صراحة ، وأضافت :

— أليست هذه متعة ؟

— ولكنها متعة شكلية ، متعة باردة .

— أنت على خطأ يا لميس .

وتابعت وهي تضحك :

ــ متع الناس تختلف . أعرف أي المتع كنت تعيشين ، وأعرف أي الملذات أحببت ، ولكن لي متعي الخاصة . أن ترى رجلاً متزناً وسيماً عاقلاً يدق الأرض بقدميه في ثقة فتظنينه ولا شيء يهد كيانه القوي هذا حتى إذا ما رآك انهار وضعف، وتحولت العينان القويتان المتحديتان إلى عيني متسول أليس هذا شيئاً لذيذاً ؟ أن تقفي لتشتري شيئاً فتجدي الكل يسعى وراء نظرة ، وراء كلمة .

ــ وأنت تبذلينها أحياناً .

قلت في هدوء ، فردت :

ــ ولم لا ؟ لا أخسر شيئاً ، بل على العكس أكسب الكثير ، الكثير من المساعدات والملاطفات .

قلت معقبة في غيظ :

ــ وارضاء الغرور !

ــ ولم لا . حتى ارضاء الغرور متعة .

قالت تناكدني ، ثم اكتشفت انها لم تكن تناكدني ، بل كانت تصف ما تحس فقط في هدوء .

ــ ولكن . حوراء . لا يمكنك أن تقضي العمر كله وحيدة .

– ومن قال اني وحيدة ؟

– ماذا . ألست وحيدة ؟

– لا .

قالت في هدوء وهي تجرع رشفة ماء تزيل بها ما علق بفمها من بقايا الكاتوه ورداً على نظرتي المتسائلة أضافت :

– حين أعود إلى البيت وأخلو بنفسي أستحضرهم جميعاً ، عيونهم الشبقة ، وأيديهم المتشنجة ، نظراتهم المتوسلة ، كلماتهم المبطنة ، تعليقاتهم الجارحة . أستحضرها كلها فأناقشها وأطاردها ، أخضع لها وأتحداها ، أنتصر عليها وأتركها تنتصر علي أحياناً . أليست هذه متعة ؟

– ولكن . حوراء . هذا جنون . لن تكتفي بالخيال عن الواقع ، وبالشبح عن الجسد .

– لقد اكتفيت حتى الآن .

– ولكن لديك فرصة رائعة الآن . لديك أدهم ، وأدهم ليس بالشيء القليل .

– همم ، ولكنه لا يثيرني كثيراً بلحيته الطويلة تلك .

– فمن يثيرك إذن ؟

– من ؟

قالت متسائلة ونظرة حلم تغالف هدبيها نصف المنغلقين :

— من . . . . . . شاب طويل أنيق في اهمال ، ذو خصلة متدلية على جبينه ، ضحكة قوية وعينان متحديتان ساخرتان ، يدان قويتا الأصابع ، رشيقتهما .

وقلت بسرعة :

— ولكن هذا الشاب يصورونه دعاية لسكائر المارلبورو فقط .

وقالت بهدوء دون دهشة لتعليقي :

— أعرف ، وأعرف أني لن أجده ، وحتى لو وجدته ، فربما لن يعجبني ، وحتى لو أعجبني ، فلن يفيدني ، فهذا النوع من الرجال مخنث على الأغلب .

نظرت إليها طويلاً أعجب لهذا الشيء الغريب في هذه المرأة الذي جعل أدهم يتخلى عن كبريائه من أجل رضاها ، بل جعلني أتعلق بها أيضاً ، وقلت ونحن نقوم :

— فيك سحر غريب . لا بد أن فيك هذا الشيء ، وإلا فما الذي جذبني إليك .

وضحكت في رخاوة ، وفكرت لنفسي : أهو هذه

اللا مبالاة بالنفس والآخر ما يجذب إليها ؟ أم أنها سجية خاصة تولد مع امرأة معينة ، وسألت بصوت مسموع :

– وخطيبك الأول ما اسمه ؟

– فاروق . الله يرحمه .

– كيف مات ؟

– همم . في حادث سيارة .

قالتها تهز كتفيها كمن ينفض ذكرى قديمة لم يعد يحب استرجاعها .

لم أشأ متابعة الموضوع فغيرت الحديث :

– تعرفين يا حوراء . هناك أشياء فيك تصعب على الفهم .

– تصعب على الفهم ؟ مثل ماذا ؟

– امرأة حسناء شابة ثرية مثلك . لماذا تعملين ؟ –

– لماذا أعمل ؟ لماذا لا أعمل ؟ .

– رحلات كثيرة تحبينها تنتظرك . متع كثيرة تستمتعين بها ويمنعك العمل من الاستمتاع بها .

– لا . في هذا أنت على خطأ يا لميس . لو لم أعمل ، فكيف سأقضي وقتي ، وحيدة في البيت ؟

كدت أسألها عن أبيها ومتى توفي ، ولم لم تسافر إلى أخيها في أميريكا ؟

ولكني أحسست السؤال فظاً ، وتابعت :

– ثم لا تنسي . عملي ممتع .

– كيف ؟

– وفود ألقاها ، أترجم لها ، أهيء لها برامج اقامتها في المدينة ، أصحبها إلى المتاحف والنوادي ، أسهر معها ، أتعرف إلى أناس جدد ، أسمع تجارب وخبرات جديدة .

– همم . ربما كنت على حق ، ولكني ما زلت غير مقتنعة ، فلو كنت على الثراء الذي أنت عليه . . . . ؟

وتحولت عيناي إلى الحلي الماسية على صدرها وياقتها وأصابعها .

– لما ألزمت نفسي بالاستيقاظ كل صباح لأحضر إلى وزارة كئيبة لا عمل حقيقياً لي فيها .

فقالت في غموض :

– الناس أذواق يا لميس .

ــ صحيح .

ــ وكنا قد انخرطنا في الزحام ، فقلت :

ــ يجب أن تكوني واقعية يا حوراء ، ففتى المارلبورو لن يسعدك .

ــ أعتقد أنه لم يعد هناك مجال كبير للسعادة .

ــ وأدهم ؟ حوراء . انه يعرض قلبه .

ــ ولحيته الخشنة تلك ؟

ــ تلك مهمتك .

ــ كيف ؟

ــ آه . حوراء . أعلي أنا أن أفهمك . ؟

ورأيت نظرة خاصة تجول في عينيها . أترى البذرة قد أنتشت ؟

* * *

— ٢٣ —

رن الهاتف وكانت لميس .

— ألن تأتي لشرب القهوة ؟

ونظرت إلى ملك . انها الوحيدة التي لا تغادر الوزارة فلا عمل آخر لديها غير نقل المؤديلات عن مجلة البوردا صيفاً ونسج الصوف شتاء ، واتجهت إلى مكتب لميس .

— كادت القهوة تبرد .

— أنتما لطيفتان جداً حتى تنتظراني .

قلت وأنا أجلس .

— وهل نستطيع الا ننتظرك يا أستاذ أدهم ؟

— آه . كم أتمنى أن تنسي كلمة أستاذ هذه .

— تتمنى ؟ ممكن ، ولكن . لا أستطيع تصورك دون كلمة أستاذ !

— لماذا ؟

ـ لا أدري . فيك هيبة خاصة ، وقار .

آه . ما أصعب هذه الكلمات على القلب حين تقولها شفاه امرأة تحبها .

هيبة خاصة . وقار !

ـ ولكن . . .

وقالت لميس بسرعة :

ـ ربما كان هذا بسبب اللحية الطويلة .

وضحكت حوراء .

ـ ربما ، ولكني لا أستطيع أن أحدد .

وامتدت يدي تتحسسها ، اللحية الخشنة التي صاحبتني سنوات الحلم والعمل ، سنوات الغربة والبناء .

ـ تعرفين ؟ الأستاذ أدهم كان وسيماً جداً في الجامعة .

وقالت حوراء في غموض :

ـ أتخيل ذلك .

ـ تخيليه قبل عشرين سنة طويلاً نحيلاً دون نظارتين ودون لحية قبل كل شيء .

ـ أكان دون لحية في ذلك الوقت؟

وقالت لميس مقهقهة :

ـ طبعاً ، أم تتخيلينه ولد ملتحياً !

وانفجرنا جميعاً ضاحكين ، وبهدوء أحسست أنها تصبح عبئاً علي ، وانتبهت إلى أني أفكر منذ مدة في خشونتها وازعاجها لي ، واني كنت أفكر في ازالتها فعلاً ، ولكني لم أجد المناسبة ، وقالت حوراء :

ـ أعجب كيف سيبدو دون لحية .

ـ وبنظارات أنيقة غير هذه التي توفي مصممها منذ نصف قرن .

ـ فعلاً . لا بد أن يبدو الأستاذ أدهم شيئاً لطيفاً عند ذلك .

ضايقني أن أصبح محور الحديث ، فحاولت أن أغير مجراه .

ـ بالمناسبة . اكتشفت الجنة التي حدثتني عنها منذ أيام .

ـ لا

— بل مضيت إليها مع أحد الأصدقاء . مكان جميل فعلاً .

— متى تدعونا إليه ؟ :

قالت لميس ضاحكة ، فقلت في اندفاع :

— الآن . اللحظة .

— ولكن . لا . لا بد من السيارة قبل ذلك .

قالت حوراء في حزن ، ورأيت نظرة تعاطف في عيني لميس .

— أستطيع استعارة سيارة أحد الأصدقاء .

— ثوب الاعارة لا يدفيء .

قالت حوراء مصممة ، ونظرت لميس إلي في لوم ، ووجدتني أستأذن وأغادرهم ، فلم أعد أحتمل ذلك الأسف على وجه حوراء . ما الذي أمضها إلى هذا الحد . أتهمها السيارة إلى هذه الدرجة ، وتحسست لحيتي مفكراً ، فارتدت يدي كأنها تكتشف خشونتها لأول مرة ، وبالفعل كانت خشونتها لا تحتمل ، ووجدت قدمي تندفعان خارجتين من الوزارة للمرة الأولى منذ نقلت إليها .

أغمضت عيني ، فلم أفتحهما ، وسمعت صوت ضربات المقص تسقط سنين وسنين من عمري . كان فكا المقص يعملان كوحشي الليل والنهار على محو كائن عاش معي . واحتملني طويلاً ، كائن أسود ذي أذرع لا نهائية أحاط بوجهي وعنقي ، كائن ملجأ أتجه إليه كلما أزمتني أزمة ، أتجه إليه بأصابعي فيحنو عليها ويساعدني على التفكير .

كان صليل المقص يعمل في حدة وسرعة وشهوة ، انه ينتقم لسنوات من الحرمان والمنع ، وها هو للمرة الأولى منذ سنوات يتاح له الأخذ بالثأر كاملاً .

— نعيماً .

وفتحت عيني . كان وجهاً آخر لم أعرفه ، ولولا العينان الصديقتان القديمتان اللتان حدقتا في مندهشتين أيضاً لأنكرت ذلك الشاب ذا الوجه النحيل والوجنتين البيضاوين يحدق في متسائلاً .

— لقد صغرت عشر سنوات يا سيدي !

صغرت ؟ أكان هذا ما أبحث عنه ، ومددت كفي

تتحسس وجهي فاصطدمت بوجه ناعم لا عهد لها به ؛ ولكنه والحق يقال كان ناعماً ، وأحسست بلذة خاصة أتحسس بها وجهي . ترى ما ستقول حوراء عنه غداً ؟ .

ولكن . لا . لن تكتفي بهذا . أنا أعرف ما تريد ، ولكن . أدهم هل تجرؤ على أن تمضي إليه ؟ أمضي إليه ؟ .

* * *

- ٢٤ -

استطاع هذه المرة أن يصيبني بالدهشة فعلاً ، فلقد كان ما قام به أكبر من كل ما تخيلت .

متى استطاع ذلك ، وكيف ، وأين ، وأية قدرة استطاع بها السيطرة على نفسه حتى فعل كل ذلك .كان شاباً غريباً ذلك الذي قال لي : صباح الخير ، وكان يقف أمام سيارة مرسيدس . لم يكن الصوت غريباً ، بل على العكس كان أليفاً شديد الألفة. نظرت إليه. لا . غير معقول.

ــ أدهم !

ــ نعم . ما رأيك ؟

كان في بذلة جديدة شديدة الأناقة كشفت عن رشاقة جسمه التي كان يخفيها في ثيابه المهملة تلك ، أما وجهه الحليق ، فقد قفز بي عشرين عاماً إلى الوراء لأرى أدهم القديم في أروقة الجامعة ، أدهم الجدي قبل الأوان ، وكأن اللحية لم تفعل خلال عشرين عاماً إلا أن تحفظ وجهه القديم من التلوث والكهولة وبصمات السنين .

ــ أدهم .

– كررتها وكأنما لنفسي أتساءل : أهو هو حقاً ؟

وانتبهت إلى المرسيدس وكان واقفاً أمام بابها .

– هل . . . . . . سألت في خشية . . . . هل أعطوك سيارة ؟

نظر إلى حيث وقعت عيناي في حيرة ، وقال بسرعة مرتبكاً .

– لا . لا

وأحسست براحة خفية تتسلل إلي ، وفاجأت نفسي أحس بالراحة. أأنا أريده أن يظل بعيداً عن فسادات الوزارة فعلاً ، أم أني أريده أن ينغمس معنا حتى الآذان ؟ وكأن ادراكي لهذا السؤال الذي لم يغب عني منذ ان عاد إلى الوزارة قد أعادني إلى أرض الواقع .

– ولكن . . .

وتقدمت ليلحق بي .

– لميس .

– هه

التفت نصف شاردة أفكر في أدهم وتحولاته ، ورأيت الارتباك عليه وهو يتمتم .

— أقول ما رأيك لو اقترحت المقصف .

— المقصف . أي مقصف ؟

كنت قد ابتعدت بأفكاري ، فلم أنتبه إلى جريانها السريع عنده ، ولا إلى سبب وقوفه ينتظرني في الوزارة لأول مرة .

— آه . لميس . لم تتجاهلين ؟ أنسيت حديث المقصف ؟

ونظرت إلى الشاب ذي الوجه الأبيض والأنف الأسمر المعرض للشمس طويلاً والنظارتين الأنيقتين والبذلة الجديدة . كان فيه شيء جديد جميل فعلاً .

— المقصف ؟ آه . تعني غداء الغوطة .

وهز رأسه في حسرة إذ تقدمت غصة ابتلعت الفرح الذي كان يعيشه . قال :

— تبدين قاسية اليوم يا لميس .

وابتعد

— أدهم . أدهم .

صرخت منفعلة إذ أدركت بسرعة أن الغيرة التي غلبت علي — حين استطاعت تحويله بهذه السهولة إلى ما تريد — قد كشفت مرارتي ، وتوقف قليلاً آملاً .

ـ لا تغضب أرجوك . كنت شاردة قليلاً ، فلقد كدت أصاب بحادث على الطريق .

ـ لا .

قال متعاطفاً ، فتابعت :

ـ ولولا سرعة تخلصي لما كنت هنا الآن .

ـ آه . لا . الحمد لله على سلامتك .

ـ الله يسلمك . سنتغدى معاً اليوم ، وفي المقصف الذي أحببت .

ـ وتحت أشجار السدر الأربعة ؟

ـ وتحت أشجار السدر الأربعة !

ـ ويحيطنا النهر من كل جانب ؟

ـ ويجري من تحتنا .

ـ ومن فوقنا الأطيار تغني ؟

ـ ومن فوقنا الأطيار تغني ، والغلمان منتشرون على استعداد لتلبية الطلبات .

ـ والأسماك تتقافز في النهر ؟

وتقدمت حوراء من بعيد ، فاحمر منه الوجه ، وارتبك ينتظر تعليقها على ما تطور فيه .

تقدمت في تنورتها البيضاء وبلوزتها النبيذية وضحكة كبيرة على وجهها .

وصلت إلينا وقالت :

– صباح الخير يا لميس .

ثم التفتت إلى الشاب الأنيق إلى جانبي وصرخت :

– أدهم . غير معقول .

كانت المرة الأولى تناديه فيها بأدهم ، وكان واضحاً أن حاجزاً كبيراً بينهما قد سقط مع سقوط اللحية والنظارات القديمة ، ولكن شيئاً قاسياً فيها لم أفهمه ، فلقد رفضت تماماً المضي إلى المقصف في سيارة مستأجرة ، وكدت أذعن فأمضي بسيارتي لو لم أحس أن دفعة أخرى لأدهم ستكون مفيدة خاصة وأن مالك قد بدأ يضيق ذرعاً بالأوراق والعروض المحبوسة في بيته .

* * *

- ٢٥ -

أصبح الأمر لا يحتمل التأجيل ، فلقد تحول العالم من حولي إلى مقاود وأذرع تحويل سرعات ، مؤشرات للبنزين والزيت وشحن البطارية ، دعسات للبنزين وتغيير السرعة ومكابح ، وبسمة كبيرة حائرة لا بد أن ترضى . أنظر إلى العلم من حولي فأراه وقد تحول إلى سيارات بيجو بيضاء، ومرسيدس سوداء، وكحلية، وحمراء. صدامات وزجاج سيارات . ماسحات مطر ، وكشافات .

وكان لا بد أن أصنع شيئاً ، وبهدوء تقلص العالم وغطى عليه ببسمة حنون وعرفت أني يجب أن أذهب ، طرقت الباب .

ومن وراء مكتبه الضخم الجليل نظر باستعلاء وقال :

— مرحباً بك يا أدهم .

أردت أن أرد التحية . أن أشكر له استقبالي . أن أشرح له ما أريد ، ولكن شيئاً فيَّ ضعف ، اضطرب ، تلعثم ، ارتبك ، وغامت الأصوات في حلقي غمغمة . قال :

ــ نحن نتعهدك برعايتنا منذ قدمت إلينا يا أدهم . لا بأس عليك ولا خوف. ستظل ابننا . فهدىء من روعك .

وانطلق لساني :

ــ سيدي

ــ لا بأس عليك يا أدهم . ها أنت تتحرر يوماً اثر يوم من خطيئتك الكبرى ، خطيئتك التي جعلتنا ننتزعك من مدينتك .

وعم الفرح ، فها هو يقول انها مدينتي ، ولكنه تابع :

ــ خطيئتك التي كانت أم الخطايا وأسوأها يا أدهم ، كانت الكبرياء ، تلك الخطيئة التي تقود إلى كل الشرور ، الخطيئة التي تجعلك لا تعرف موضع قدميك الحقيقي ، الخطيئة التي ربما دعتك إلى التمرد ، والتمرد يعني الخروج على القوانين والأعراف والشرائع ، وأنت كنت في سبيلك إلى هذا لو لم نأخذ على يدك ونردعك في الوقت المناسب .

وتسلل الخشوع إلى قلبي ، فروحي ، فجسدي ، وأردت أن أجثو مستغفراً ولكنه ما تركني أفعل ، بل تابع .

– أنا أعرف ما تريد ، فعيوني ترى كل شيء .

وعربد السؤال خبيثاً في أعماقي يريد امتحان معرفته . أحقاً تعرف ، فما هو إذن ؟ ولكن السؤال لم يجرؤ على التجسد ، فتابع :

– رأينا تواضعك ، حياءك ، اعترافك بالذنب ، فعرفنا أنك الرجل الذي يستحق الغفران ، وما مجيئك إلينا هنا إلا الاقرار بأنك ولدنا وحبيبنا وصديقنا والشاة التائبة . مرحباً بك معنا يا أدهم . ادخل ملكوتنا ثانية ، وحينما تخرج من مكتبي هذا ستجد بغيتك تنتظرك عند الباب .

ارتبكت حائراً لا أدري ما أقول ، ما أسأل ، وما يدريني إن عرف أنها السيارة أم شيء آخر ؟ وعلى أية حال ، فهو لم يترك لي فرصة للحيرة أو التساؤل بل تابع في صوته المصدي في الروح والقلب :

– تمردت ثم أنبت ، عصيت ثم رجعت ، فمرحباً بك أيها الابن التائب ، مرحباً بك في ملكوت رضانا ، مرحباً بك خاضعاً لرهبوت ارادتنا . مرحباً بك منيباً

لجبروت إشارتنا ، مرحباً بك معترفاً لعظموت رغبتنا ، مرحباً بك يا أدهم .

والآن تستطيع المضي ، فقم مغفورة لك خطاياك ، مرحوماً من كل ذنوبك ، مشفوعاً برضانا ، متقبلاً هدايانا .

قمت متجهاً إلى الباب ، ولكن السؤال القديم الذي تضاءل عاد إلى الحياة ثانية ، فجاءني صوته الجليل المصدي ثانية يقول :

— أنا أعرف أنك تريد أن تسأل عن عودتك إلى مدينتك . أليس كذلك . ؟

وهمست :

— سيدي . . . .

— لا يا أدهم . لا يزال الوقت مبكراً على هذا ، ما زال أمامك طريق طويلة من الاعتراف بالذنب والاقرار بالخطيئة وقرع الصدر منتظراً السماح بالعودة .

— ولكن . . . .

— لا تعترض . . . .

وأدركت أنه يريدني أن أتمها ذهنياً (فتنطرد) فسكت ، وتابع :

— المدينة لن تهرب . وبناؤك القديم لن يتصدع ، ولكن عليك أن تنتظر حتى نرى الوقت المناسب لعودتك ، وعندها ستفتح المدينة ذراعيها ، وتستقبل ابنها الحبيب البكر ، وستعود محمولاً على أذرع رضانا ، ولكن بعد أن تعرف أنا نحن من أمر ، ونحن من أعطى ، ونحن من منح ، ونحن من منع ، وتكون قد تخلصت نهائياً من خطيئة الشر الكبرى ، من الكبرياء .

قال كلمته الأخيرة كمن يبصق في ازدراء ، وكدت أرفع كفي أمسح البصقة عن وجهي ، ولكني لم أجرؤ ، فتابع :

— امض يا أدهم ، فخذ عطيتنا ولا تبال .

أغلقت الباب خلفي في هدوء أحاذر سماع صريره ، ونزلت . كان أمام الباب ينتظرني وبيده المفاتيح .

— مبروك .

— ماذا ؟

ـ السيارة . تعال أسلمك أوراقها .

كالحالم مشيت وراءه ، وكالدائخ وقعت أوراقاً ، واستلمت المفاتيح ، ونزلت لأجدها تنتظرني في الباحة بيضاء براقة جديدة بيجو .

شغلتها ومضيت بها أجربها في شوارع المدينة ، وتمنيت لو كانت إلى جواري ، ولكني عزيت النفس انها ستكون إلى جواري . كل ما في الأمر اني يجب أن أنتظر حتى أقدمها لها مفاجأة ، وصدى صوته ثانية في أعماقي (مدنيتك . مدنيتي . المدنية)، وطغى الفرح على قلبي . ها هو الرضا يتقدم من كل جانب ، ولكن . استرضي بصحبتي إلى المدينة ؟ وأغمضت عيني القلب أسترجعها ، ولكن بناياتها الصغيرة وشوارعها المستقيمة وبحيراتها بلا شطآن تغشت وتلاشت وتقدمت بسمة كبيرة بيضاء فاحتلت القلب والعينين وساحة الروح .

* * *

— ٢٦ —

تنقشع الغشاوة شيئاً فشيئاً ليتبدى العالم طازجاً نضراً ، ذراعي مستندة إلى النافذة وحوراء إلى جواري والعالم يجري من حولي . أنظر بجانب عيني فأرى جانب الساق المتبدي من التنورة تنكشف عن الركبة ، يرتفع الدم إلى رأسي ، وأحسه يجري في عروقي .

تلتفت إلى الخلف لتهمس إلى لميس ، فيزداد انكشاف الساق ، وتقول لميس :

— لو نتوقف لنشرب كأس عصير . أحس بعض العطش .

كان طلبها موفقاً إذ أنقذتني مما لست أدري . أنزل من السيارة فلا أجد لدى البائع إلا أكياساً معلبة قال :

— لقد نفدت كل أنواع العصير . لم يبق لدي إلا ماء الكوثر . هل يعجبك ؟ .

دفعت الثمن وعدت دون أن أجيب . قالت :

– انك لا تتكلم .

فقلت :

– اني أعيش !

وضحكتا لما بدا لهما نكتة . كانت السيارات المملوءة صبايا وشباناً تتدافع إلى جانب سيارتي تسبقني ، وكانت الأشجار والطريق وغيوم خفيفة آخر الأفق والنهر تبدو شيئاً جميلاً ، خاصاً ، متميزاً ، وقالت حوراء :

– انهم يسبقوننا . سيارتنا جديدة .

وضغطت القدم على مضغط البنزين ، فاندفعت السيارة تجتاز الناس والسيارات ، الباصات ، والميكرو باصات . البساتين ، والأنهار . وبدا العالم من حولي ميدان سباق امتلأ بكل أنواع المتسابقين ، إلى الثراء ، إلى المجد ، إلى الشهرة، إلى النساء ، إلى كل شيء ، إلى السباق في حد ذاته دون أمل بالفوز ، وبدت اللعبة مسلية ممتعة ، أن تشترك في سباق إلا تعرف نهايته، ولكنك بأعصاب باردة تقفز إلى الميدان في كامل تأهبك . ثم على المتسابقين والميدان ان يحددوا شروط وقواعد وجوائز ونهايات اللعبة .

قالت :

– تتعجل ، تخيفني .

قلت :

– أنت من أراد ذلك .

وقالت لميس في هدوء :

– نحن ذاهبون لنتنزه ، لا لننتحر . أليس كذلك يا حوراء ؟

والتفت لأعلق ، ولكنها صرخت :

– لا . أرجوك . انظر إلى الأمام .

وارتفعت القدم عن مدعس البنزين وهدأت السيارة .

تسللت شحنة التوتر تتسرب من المسام ، مسام الجسد . ومسام الروح . وأحسست هدوءاً عجيباً يسيطر علي . ها أنذا أفوز بالسباق ، فلا تتجاوزني سيارة واحدة ، وقالت حوراء :

– أعصابك حديدية . كيف استطعت فعل هذا ؟

– فعل ماذا ؟

– تتجاوز السيارات والباصات والناس جميعاً ، ولا يتجاوزك أحد !

قلت :

– أنت أردت ذلك .

وقالت لميس .

ــ ها نحن وصلنا .

وانحرفت بالسيارة في طريق منحدر بين الأشجار تظلله من الجانبين .

وقالت لميس :

ــ انظر إلى التفاح ، ما ألذه وأكثره ؟

دفعت بيدي فقطفت غصن زيزفون وقلت :

ــ ما أجمل رائحته .

ومدت حوراء ذراعها لتقطف تفاحة ، فاشتبكت ذراعها بغصن شوكي وصرخت . أوقفت السيارة بعنف

قالت في صوت متألم :

ــ ذراعي .

نظرت إلى ذراعها كان قد خدش في مكانين ، وقلت معاتباً :

ــ كيف تمدين ذراعك والسيارة تسير ؟

ــ أفلم تقطف أنت غصن زيزفون ؟

فتحت لميس السيارة واتجهت إلى البستان . بينما أخذت أغسل ذراعها قبل أن أضع لها اللاصق الطبي . أدخلت لميس رأسها من النافذة . وقالت :

— خذي

أخذت حوراء تفاحتين ناولتني احداهما . كانتا حمراوين كما الشهوة وكانت رائحة حامضة تفوح منهما وقالت حوراء :

— كل .

كان في صوتها لذعة فجاجة التفاحة غير الناضجة . عضت على التفاحة وبدت أسنانها الجميلة وقد انغرزت في عنق التفاحة ، فأحسست بمتعة بلا حدود ، عضضت التفاحة ، فسال بعض من عصيرها الحامض قبل الحلاوة على شفتي ، بحثت عن منديل ، ولكنها أسرعت بمنديل في يدها ، فمسحت فمي وشممت عطرها يعانق أنفي ، وعرفت ساعتها أن السعادة شيء في متناول الانسان .

أربع سدرات وحورة ونهير أحكم توزيعه ، فدار حول المكان ، ثم استفيد من انحدار المكان ، فجعل نهيرات وزعت بينها الطاولات وظللتها أشجار الدلب والحور ، وانثنى فوقها الصفصاف ، وانتثر الغلمان والخدم ينتظرون اشارة زبون تلبى ، وقالت لميس :

ـ يمكن للجنة أحياناً أن تكون أرضية .

وهزت حوراء برأسها موافقة تقضم فستقة . جلت بعيني ، فعرفت أن الجنة فعلاً يمكن أن تكون أرضية ، جلت بعيني فطالعتني النساء في أبهى زينتهن ، وبدا المكان كعرس وثني قديم ، الوجوه حسنة الصباغ ، والشعور حسنة التسريح ، والعطور حسنة التوزيع ، والطاولات مترعة لحوماً وسلطات ومقبلات وكحولاً .

نظرت إلى داخلي وهمست .

ـ الآن فقط عرفت لماذا كانوا يقاتلون ويقتلون ، يسرقون ويكذبون . ان جنة كهذه تستحق ان يبذل من أجلها الكثير .

وقالت لميس :

ـ لا أراك كثير السعادة !

ـ أنا ؟ على العكس . أنا السعادة مجسدة !

وقالت حوراء :

ـ فلم لا تضحك إذن ؟

وراقتني نكتتها فضحكت حتى الثمالة ....

شربت الكأس الأولى . نظرت من حولي . وجوه

ووجوه . سمنة وكروش. حلي وأصبغة . ضحك ومرح . غزل خفي وعلني ، وأحسستني محاصراً .

كيف ؟ لا أدري ، ولكن حوراء قالت :

– ألا ترى المكان بهيجاً ؟

نظرت من حولي ، دلبات عجوزة وسدرات ، حور وصفصاف ، نهير مزق نفسه ليحيط بالمكان ويجري من تحت المقصف ، غلمان في عمر الورود يسرعون حاملين صواني المقبلات واللحم المشوي والمشروبات ، وضحكة حوراء الكبيرة البيضاء حتى لتطغى على المكان كله فلا ترى فيه إلا ضحكة كبيرة سعيدة بيضاء تنشر الرقة والصبا والبهاء من حولها .

أشرب ضحكتها تشقشق سعيدة تنشر الفرح من حولها ، كان من الواضح أنها سعادة انتظرتها كما انتظرتها طويلاً ، ملأت لها كأساً ثانية من البيرة ، فتمنعت قليلاً ، وقالت :

– أنا سكرى منذ البداية ، فلم الثمل ؟

قلت :

– اشربي ولنسعد، فأحد لن يعرف ما سيحمل الغد

والتفت إلى لميس بغتة كانت هناك نظرة مرة في عينيها الجامدتين تحدقان في النهر المتسلل ، نظرة لم أرها على عينيها منذ سنوات وسنوات ، أتراها تفكر في شيء ، أتراها تحاول تذكر ذلك الماضي الذي أصر على دفنه ؟ ولكن ذاك شيء مضى وانقضى ، فما الذي تفكر ... الآن ؟ قلت في رقة :

– لميس . ألا تشربين ؟

انتفضت للمستي مرعوبة ونظرة كراهية في وجهها وأحسست بالحرج كأن لمستي بعثت فيها اشمئزازاً أو مقتاً لا أعرف منبعهما .

– لميس . منزعجة من شيء أنت ؟

أعدت سؤالي في أقصى رقة أستطيعها ، وكأنها رأت الحوف على وجهي يعكس الاشمئزاز الذي تحمله ، فتمالكت نفسها .

– أريد أن أشرب .

ملأت كأسها ، فقلبته في حلقها دفعة واحدة ، وقالت حوراء ضاحكة :

ـــ هيه لميس . هذا مشروب . وليس ماء !

أشارت بيدها لأملأ كأسها ، فملأته . رفعته إلى فمها ثانية وشربته دفعة واحدة . اللعنة . ما الذي يجري ؟ صربت الطاولة بكأسها ثانية ، وفجأة صرخت حوراء في طفولة :

ـــ انظر . انه المطر .

وانثالت السماء بدمعات رقيقات نشرت في الجو هدوءاً رطباً ناعماً يتسلل إلى الضلوع ، وانتشرت الدوائر على سطح النهر تداعبه قبل ان يبتلعها في مجراه العميق . اغتسلت الأشجار . وأسرع عمال المقصف فنشروا خياماً فوق مجالس الطاعمين ، وتحول المكان فجأة إلى شيء خاص متميز تجمع فيه الطاعمون بطاولاتهم . فالتغت المسافات . وحل جو حميم جعل الكل يحدق في الكل في فرح ودون شعور بالحرج ، وتعلق في الهواء قطرات مطرـــندى تأبى الهبوط ولا هواء يحركها . وقالت حوراء :

ـــ أنا سعيدة . ألستم سعداء ؟

وأحسست بتيار من السعادة يلفني ، يهزني ، يحيط بي ،

تمنيت أن أفتح ذراعي للكون أحتضنه . أحبه ، أكل هذه السعادة على الأرض ولا أعرفها .

نظرت إلى لميس . كان التوتر قد انساب منها مع هذا الحمام السماوي .

وسألتها حوراء :

— أليس هذا شيئاً جميلاً ؟

وقالت في هدوء :

— جداً .

ولكن نظرتها جمدت ثانية تحدق في مكان قريب . ملت بكرسيي قليلاً أنظر حيث تحدق ، كان هناك مالك مدير عقود الوزارة ، وكانت معه امرأة وكان على وجهه سعادة . انتفض حين وقعت العيون على العيون ، وأحنى رأسه يحييني . ترى . ما الذي جاء به إلى هذا المكان ؟ .

* * *

ـ ٢٧ ـ

رن الهاتف . وكان مالك .

ـ هاه . ما الأخبار ؟

ـ جيدة .

قلتها في هدوء ، فقد كان انتصاراً مراً . كان علي أن أشهد سعادتهما وأن أتفرج على هذا كله في حياد من أجل . . . . من أجل ماذا ؟ . . . . أهناك شيء في العالم يستحق أن يضحى بأحلام الصبا من أجله ؟ كان أدهم رغم البعد ورغم الفراق شيئاً عزيزاً . كان الصبا ، كان الفرح ، وكان الحلم ، حتى لو غاب. فقد كان يكفي أن أفكر فيه من بعيد ، ذكرى حلوة لأيام حلوة ورغبات حلوة ، ولكن..... حتى هذا الحلم ، وحتى هذه الذكرى ، بل وحتى الصبا نفسه .

ها قد استعدته كما كان أيام الجامعة محفوظاً داخل لحية وحلم ، فجردته من اللحية والحلم ، ثم قدته بيدك

إلى حوراء لتقوده من أنفه إلى باب الوزير يطرقه حليق اللحية والحلم والأمل . وصرخ مالك :

– كأنك غير سعيدة .

– سعيدة ؟ ولم أكون سعيدة ؟

– لقد كسبت الجولة الأولى . ألا ترين ؟

الجولة الأولى ؟ قلتها وأنا أضع السماعة ودمعة جافة تجلد العينين ماذا تبقى لك الآن يا لميس ؟ ها هو انتصارك الكامل . ها هي مدينة الصبا تعلن استسلامها ، وها هو نبي الشباب يطرق باب الوزير ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل سيارة !

رن الهاتف ثانية وكان مالك .

– نسيت أن أقول لك .

– هه .

– متى سترينه ؟

– من ؟

– لم تتجاهلين يا لميس . الوقت يسرقنا ، ولم يبق إلا بضعة أيام ، ونحن لم نتقدم للمناقصة معتمدين على أنه

سيقبل أرضنا وعرضنا دون أن نشارك في المناقصة أم نسيت ؟ .

وقلت في مرارة :

– لم أنس شيئاً .

– فابذلي بعض الهمة أرجوك .

– أفعل جهدي .

– لم تبدين سئمة ؟ نحن نقامر بكل شيء ، بمالنا ومال أصدقائنا .

وكأنه أحس بضيقي من حديثه ، فحاول أن يمزح :

– صحيح . رأيتكم منذ أيام هناك .

– أظن الأمر كان بالمصادفة .

قلتها ساخرة .

– لميس . لا تستخدمي ذكاءك معي .

– ما المطلوب مني الآن ؟

– ان يوقع وثائق استلام أرضنا من أجل المشروع ، وأن يقبل عرضنا لبنائها .

– وإن رفض ؟

ـ لن يرفض ، فلقد رأيتكم هناك . كان سعيداً تماماً ، وكان واضحاً أنه يدخل اللعبة بقدم ثابتة .

آه يا أدهم . أصحيح هذا ؟ أصحيح أنك تدخل اللعبة بقدم ثابتة ؟

طرق الباب ، فوضعت السماعة . كان أدهم ، وكان سعيداً ، وكان وجهه الشاب يثير فيَّ الغيرة . كيف احتفظ لنفسه بهذا الشباب وهذه النضارة .

ـ لم تهتفي اليوم ، قلقت عليك ، وقلت ليس هذا من عادتك .

ـ كنت أحس بصداع ثقيل .

ـ سلامتك . سلامتك .

ونظر من حوله في لهفة . كان من الواضح أنه يبحث عنها حاولت أن أتلذذ بتعذيبه ، ولكن الهاتف رن ، وكان مالك ، وقبل أن يقول : جاء برجليه إليك كنت قد وضعت السماعة والتفت إلى أدهم .

ـ أستأذن لبعض الوقت . اقرأ هذه المجلة .

انسحبت إلى غرفة مالك ، وفي الدهليز رأيتها ، كانت

في ثوب أبيض جعل سمرتها الخفيفة تبدو لذيذة . نشرت ضحكتها من حولي .

ــ أشربت قهوتك ؟

ــ لا . سنشربها معاً . تعالي .

ــ بل نشربها لدي . تعالي .

ــ لا . تعالي . أريدك قليلاً .

دخلنا إلى مكتب مالك الذي اندفع يرحب بنا من وراء مكتبه .

ــ أهلاً . أهلاً . أية خطوة عزيزة !

واهتز كرشه ، وامتدت بسمة كبيرة على وجهه ، بسمة باردة لا تنتقل إلى العينين أبداً . إن مالك إذا ابتسم مرة ، فيجب أن نعرف أن ثروة ما في طريقها إلى الانتقال من يد إلى يد .

ــ كيف حصل وزارنا القمر !

ــ لن أستطيع اطالة الزيارة ، فلدينا ضيف في غرفتي .

ــ من ؟

سألت حوراء في براءة . ونظر إليها مالك غير

مصدق ، ولكني قلت في عادية لا أريد له أن يتمادى في تظارفه .

– أدهم بك .

واحمر وجهها قليلاً ، فلقد فهمت معنى نظرته الآن ، أما أنا فقد التفت إلى مالك في حياد .

– الأوراق من فضلك .

أسرع يناولني الملف ، وكان قد أعده في درجه الأعلى . أخذته واتجهت إلى الباب .

– ولكن . لم العجلة ؟ القهوة .

– لا . سنشربها فيما بعد .

ومشت حوراء ورائي لا تفهم ما يجري بالضبط ، وحين أغلقت الباب من خلفنا أخذتها من يدها ، واتجهت إلى نافذة تطل على الباحة ، وتبعدنا عن عيون الفضوليين .

– اسمعي يا حوراء . أنت تعرفين أي اعزاز أحمل لك ولأدهم .

– همم .

قالت وهي تهز رأسها غير فاهمة .

ـ وما صدقنا أن استطعنا إخراجه من الحالة النفسية التي كان يعيشها بعد تركه تلك المدينة .

ـ هه . صحيح .

ـ ربما لم تلاحظي ، ولكني بذلت الكثير من الجهد والضغط والرجاءات .

ـ همم ـ وتابعت المسكينة في تظاهر بالفهم ـ كنت ألاحظ شيئاً كهذا .

ـ والآن لدينا مشروع كبير .

وأشرت إلى الملف .

ـ سيكسب منه الكثير ، وأنت ستكسبين أيضاً الكثير .

ـ لا أفهم .

ـ بل تفهمين . من أجل مشاريعكما المستقبلية ـ وشددت على أداة التثنية في مشاريعكما ـ ستحتاجان إلى الكثير من المال .

ـ لميس . أنت تتعجلين الحكم على أشياء كثيرة .

ـ أحاول قراءة الغيب يا حوراء . أدهم يحبك ، وربما لم تحسي بحبه تماماً . ولكنه بذل من أجل ارضائك الكثير الكثير ، ولن تستطيعي القول إنك لا تحسين بعاطفة ما تجاهه .

ـــ الواقع ـــ قالت مترددة ، وخفت أن تضمه إلى قائمة العابدين ـــ أني أفكر .

ـــ ولكنه فكر وانتهى إلى قرار ، ربما لم يعلنك به حتى الآن للخجل ، لا لشيء آخر .

ورأيت بسمة رضا وفرح على وجهها .

ـــ أستطيع أن أؤكد أنه سيصبح شخصية هامة جداً لو أنك دفعته فقط . ان مستقبلاً رائعاً مفتوحاً أمامه ، ولكنه لا يملك الدافع للتقدم ، وعلينا أن نهيىء له هذا الدافع .

ـــ وهل سيكون علي أن أكون الدافع ؟

ـــ بالضبط .

ـــ كيف ؟

ـــ سنبدأ بهذا .

وأشرت إلى الملف .

ـــ انه مشروع كبير يهم الوزارة ويهم الوطن . وسيكون في اطلاعه عليه وتوقيعه افتتاح عالم جديد له .

آه . حوراء . أرجوك لا تنظري بهذا الشرود . يجب أن تصنعي شيئاً .

وضحكت حوراء في رخاوة وقالت : لا بأس

أخذت الملف ، ومضت إلى غرفتي بينما اتجهت إلى البوفيه لأوصي على القهوة .

حين أغلقت الباب من خلفها مسحت بكفي على زجاج الدهليز المطل على الباحة ، ورأيت وجهاً يتطاول ، وعينين تحدقان في لذة ومتعة ، فها أنت بين يديها الآن يا أدهم ، ولن تستطيع أبداً الرفض .

ولم يطل انتظاري ، فلقد فتح الباب بعد قليل ، ورأيته يخرج ونظرة جنون على وجهه . ولما رآني صرخ في حقد :

— أهذا ما تريدين يا لميس ؟ أهذا ما تريدين ؟ أنا أدهم الأدهمي تريدون شرائي وتلويثي ؟ أنا أستلم منكم مشروعاً كهذا ؟ لا . لا . لا

صرخ غاضباً وهو يتجه إلى المصعد. ولما لم يستطع انتظاره انطلق في اتجاه الدرج . وغاب بينما وقف الموظفون على أبواب مكاتبهم يراقبون هذه الضجة بعيون مفتوحة لا تفهم . تابعته حتى أول الدرج، ثم تسللت بهدوء إلى غرفتي لأجدها تقلب في أوراق الملف بوجه متجهم وعيون خامدة .

— ٢٨ —

وجوه . وجوه . وجوه ، رجال ونساء ، موظفون ومدراء ، أذنة وفراشون ، بوابون وحراس .

أركض ، أركض ، وجوه شمعية بيضاء ، صفراء ، شعور مستعارة ، أهداب مستعارة ، فكوك مستعارة ، عيون مستعارة .

الممر طويل والعيون واسعة ، تحاصر ، تضايق ، تخنق ، تقترب . أدفع بيدي من حولي أبعدها عني ، ولكن يدي لا تصدم شيئاً ، انها تمر عبر الهلام العيني ، عبر المستعارات ، تنزلق ، تعود إلي ، فأندفع إلى الأمام .

المصعد بعيد كالعادة ، والحاجب بترفعه المعهود ينظر في بلاهة لا يفهم . أندفع إلى الدرج . حلزون أفعواني ، أمسك بحديد الدرابزين ، واندفع ، أقدامي تضرب الدرج فتشرخ السكون . السكون ؟ توقفت الهمسات والصرخات

والاحتجاجات ولم يبق من حولي إلا السكون ، فأندفع هابطاً ، هابطاً تحيطني ضربات قدمي على البلاط العاري .

الحلزون طويل ولكني أهبط ، أهبط والظلام من حولي يحيط بي . هذا الدرج الملعون الذي لم يشقوا له نوافذ إنارة . لو أعرف من صممه لخنقته بأصابعي . يشتد الظلام ويضغط . يحيط بي حتى أكاد أختنق ، ولكني أهبط . أهبط . أهبط .

أتوقف قليلاً . أنظر إلى العلاء ، لعلهم يلاحقونني ، ولكنهم اختفوا ، لم يبق سواي والدرج الأسود العتم وضربات أقدامي على البلاط العاري .

يتحلزن الدرج من حولي ، يقترب ويكاد يلتصق ، ولكني يجب أن أبتعد عنهم بأسرع ما أستطيع . لن أمكنهم من اللحاق بي ، لن أمكنهم من خنقي بعيونهم الفارغة القاسية الجارحة المدينة .

أهبط . أهبط ، وفجأة ينفجر المدخل أمامي نوراً وضجيجاً . أحاول حجب عيني عن صدمة النور الأبيض العنيف ، ولكن الشمس تخترق كفي فتحيل النور عبرها إلى حمرة أراها بعيني المرهقتين . الضجيج الحاد ، ضجيج

العربات ، الباعة ، القطارات ، كلاب الحراسة ، حيوانات الجر . ضجيج، ضجيج، ضجيج .

أزيح أناملي قليلاً ، فأرى . عيناي تحتملان النور في عناء . أغمضهما قليلاً ، وأنظر إلى الداخل ، أعودهما على النور ، ولكن الضجيج ، الضجيج المخيف .

هل أخرج ؟ ولكن . لماذا ؟ إلى أين ؟ ماذا أفعل ؟ وإذا لم أخرج ، فماذا أفعل ؟ أعود إليهم ؟ إلى عيونهم القاسية المجرمة المخادعة .

الشارع يدعوني ولكني أخافه . كيف أواجههم ، الناس من حولي ، ترددت خائفاً ، وفجأة رأيت مؤشر المصعد يشير إلى هبوطه ، ولم يعد هناك من خيار ، فقذفت بنفسي إلى تيار الشارع يسري بي

وجوه ، وجوه ، وجوه . متى استطاعت هذه الوجوه كلها أن تتوالد . كيف استطاعت أن تتشكل ، ولماذا ؟

قدماي تحملاني ولا تحملاني ، بل هو التيار يتقاذفني ، يحملني معه. وجدتني اتجه إلى موقف الباص يحملني إلى بيتي ، ولكن . لا . سيدركوني هناك. سيهتفون لي . سيحيطوني بتلوثهم ثانية . لا .

واندفعت قدماي تحملانني إلى الشوارع العتيقة . الشوارع التي لا يعرفونها، وانتشر الهدوء الرطب من حولي ، وتحركت القدمان تتشردان دون اشارة مسبقة، ووجدتني أقف أمام الباب . نظرت من حولي . عجيب . هذا المكان أعرفه . هذا الباب أعرفه ، وبهدوء أخذت الصورة تتجلى أمام عيني . انه البيت العتيق، بيت الأهل المهجور الذي لم يزر منذ سنين وسنين ، البيت الذي طالما حننت واشتقت إليه ، ولكني أبداً لم أحاول نقل الفكرة إلى أرض الواقع .

فتحت الباب ودخلت . . . . . . في الدهليز الرطب المعتم دخلت ، كنت أعاني . رائحة الرطوبة ، والمياه الدافئة المتسربة من الجدران . خيطان العنكبوت المتدلية ، وأمام الصورة العجائبية توقفت كان البيت العتيق ، البيت المنبثق من عالم الذكرى ، فوضى واضطراباً ، ركاماً وانهدامات .

الشجرة اليابسة بأغصانها المتدلية حتى تمنعك من المسير . أكوام من ورق الشجر اليابس المنتثر في المكان . ركام وتلال من الغبار وقطع الطين المتساقطة عن الجدران . البحرة الجافة المنتنة ذات الأشنان السود المتعلقة على أطرافها ،

زجاج النوافذ المحطم . الأبواب الفاغرة أفواهها للظلام والريح والعواصف والبرد .

الفئران وبنات وردان ، الجرذان وبنات عرس ، القطط والغربان ، البوم والسنجاب ، كلها مرت من هنا ، وتركت آثارها روثاً يدل عليها . الياسمين المتسلق غطى نوافذ الغرفة الأمامية ، أغصان الحميسة اليابسة المتعرشة على الجدران أصابع قاسية متطاولة متشنجة متعرقة تبحث عن ممسك لها على الجدران الطينية ، نباتات القمنديل واللبلاب اللعينة تتسلل إلى الشقوق والنوافذ والأطناف والرواشن . تتعلق بكل شيء ، ثم تتدلى متهيجة ، متحدية ، متثنية ، ناشرة أزهارها القمعية وبذورها السود ، فتنثرها بين شقوق البلاط الذي كان أبيض رخامياً فيما مضى قبل ان تحل عليه لعنة العزل والهجران ، فتنتش ، وتنشر لبلابات ومتسلقات جديدة تتأفعى بين البلاط ثم ترتفع قاماتها الصغيرة فوق قطعة من الطين الجاف ، أو قطعة من حجر أسقطته عاصفة في شتاء ما . وما تزال تتسلل وتتسلل ، تتسرب وتتزحلق حتى تجد مستنداً لها . فتشد من قامتها ، وترفع ناشرة قلوباً خضراً أوراقاً . وما تلبث أن تفتح

أقماعها البنفسجية زهرات . ويتسرب الماء من أنابيب الفخار القديمة التي اعتادت حمل الماء من النهر القريب — قبل أن يتحول إلى مجرى للمجاري وقبل أن ينقطع الماء ويجف النهر — الذي لا ينسى أن يتسرب بين الحين والآخر فيغرق الباحة ويسقي لصوص الزهرات والنباتات واللبلابات والمتسلقات .

من ايواني المغطى بالغبار وخيطان العنكبوت الفضية المتلألئة . من ديواني المغطى بفراش عمره عمر الطفولة . وغباره غبار الهجر والعزلة التي أحاطت بالبيت منذ قذف بنا كل إلى ركن من أركان العالم أخذت أرقب العالم القديم الذي عشته وعاشني .

سنوات طويلة انقضت يا أدهم منذ أن غادرت هذا البيت لتكتشف العالم ، لتخلق العالم ، لتعيد تسميته ، لتبنيه من جديد .

كنت تظن أنك ستعيد العالم إلى نقائه الأول ، إلى طزاجتـــه الأولى ترفع عنـــه القهر والفساد . الفوضى والتلوث . الاضطراب والمحسوبية .

حين دعوك وأنت المهندس الموهوب إلى البناء ترددت ، فالمدينة تعرض عليك المال والرفاهية . البيت المريح والسيارة الفارهة . والصحراء بنقائها القديم تعرض عليك طزاجتها وبكورتها لتبدأ فيها بناء تضع عليه بصمتك . أنت أدهم الذي سيبني المدينة الأولى — المدينة — الحلم .

واخترت ومضيت ، وها أنت تتخلى عن كل شيء ليقذف بك ثانية إلى نقطة البدء، إلى البيت القديم الذي منه خرجت . آه ، ولكنهم سيبحثون عنك ، عبثاً سيبحثون ، فلن يفكر واحد منهم أبداً أن يبحث عنك في بيتك الأول ، البيت القديم الذي منه خرجت .

جلت بعيني في المكان قليلاً ، أغمضتهما ، فرأيته محاطاً بالياسمين الأبيض والأصفر .

رأيت شجرة المسك في عنفوانها ، النارنجة بكراتها الخضر المتساقطة من حولها حبوباً صغيرة ، والمعلقة عليها كبيرة لتصفر . رأيت البحرة الرخامية البيضاء والماء يخر فيها ، ومن حولها سبائك من فضة رخية ما تلبث أن تتحول مويجات خضراً .

شممت السعادة غيوماً تجول في المكان ، سمعت القماري والحساسين ، الكناري والشحارير تغزو المكان وتغني . تغني لمن ؟ ألي أنا ؟ لست أدري ، ولكن المكان كان قدساً أوحد ، جمالاً خاصاً متميزاً ، خضرة شاهقة ، وروائح قدسية ، ومسموعات إلهية .

استندت بظهري إلى الديوان العتيق ، وأعدت بناء المكان كما كان ، فانتصبت الأشجار خضراً وعاد إلى الجـــدران بياضهـــا الحواري وماجت البحيرة بمياههـــا وسميكاتها الحمر ، وانتشر الياسمين والورد الجوري ، الدادا والشاب الظريف ، ومن أمكنة خفية لا أعرفها انبعثت فتيات حسان صغيرات في ثياب بيض وخضر ومزعفرة. انتشرن يتراكضن حول البحرة يتراشقن بالمياه ، يتداعبن بأغصان المسك وبزهرات الشاب الظريف ، يتضارين بالنارنج الأخضر ، ثم واستجابة لاشارة خفية انتسقن ورقصن رقصة سماح قديمة .

تمايلن واهتززن . تقدمن وتخلفن . ملن ذات اليمن وذات الشمال تحلق من فوقهن هالات من حسن وبهاء خاصين . رقصن ورقصن ، ثم من مكان خفي انطلق صوت سماوي فغنى أغنيات لم أسمعها منذ سنين وسنين ،

أغنيات أذكرتني أصابع أمي تحك لي شعري وأنا مستلق على ركبتها . تغنيني مداعبة بصوتها الناعم الخافت وقد انسدل جانب من شعرها على رأسي بينما غامت عيناها وراء الأفق البعيد ، تغني ؟ ترى لمن كانت تغني ؟ ألي وهي تداعب رأسي بأصابعها في هدوء ؟

أنين غريب هز المكان ، وفتحت عيني . كانت شجرة المسك اليابسة تهتز في قسوة إذ يبدو أن عاصفة ستمر في المكان ، ورأيت الوريقات الصفر تشكل زوبعة تدوم في الباحة ، وتساقطت كتل طين ها هنا وهنالك ، وأصبح واضحاً أن علي أن أعد المكان لاستقبالي ان أردت الاقامة فيه.

الاقامة ؟ ولم لا . ألي مكان آخر بعد أن تخليت عن الجميع ، وتخلى عني الجميع ؟ حتى أنت يا حوراء ، حتى أنت أيها الأمل الذي دخل حياتي ومضة بهجة في ليل عتم تتحولين لتصبحي واحدة من أياديهم .

كيف لي أن أختفي عن عيون الناس في الوزارة وفي النقابة ، وعيون كل أولئك الذين احترموني يوماً ؟ يجب أن أختفي لبعض الوقت ، لكل الوقت ؟ لا أدري ، ولكن

ما يجب أن أفعله هو أن أختفي حتى تمر العاصفة وينسى الموضوع بأكمله .

ينسى ؟ هل سيتر كونك تنسى ؟ ولميس . لميس أي قلب أسود حملك على هذه الفعلة ؟ كيف جرؤت على تلويث النقطة الأكثر بياضاً في حياتي ؟ كيف استطعت جعل حوراء يداً من أياديكم ؟ أتراها كانت تعلم أم أنها انساقت وراء حبالك ؟

آه أيها الرجل المولود لغير زمانك ، أيها المحارب المسكين في غير ميدانك . ها هم يسعون وراءك ، أصوات كلابهم تنبح في الحارات ، وانوفها تتشمم آثارك في الزوايا والأركان ، ولكن . لا . لا أظنهم يصلون إليك في معقلك هذا !

اضطجعت على ديواني المنفوض ، ونظرت إلى بنطلوني الجديد الذي لبسته اليوم فقط لأرضي حوراء ، نظرت إليه وقد غبره تراب البيت العتيق .

أكوام من ورق الأشجار جمعتها في ركن باحة الدار وزقزقات العصافير المركزة حتى لا تستطيع تمييز صوت عصفور . انها كتلة زقزقة واحدة .

آه . ذلك اللحن القديم الذي لا زال يحتفظ بكل براءته الأولى منذ سنوات الطفولة في هذا البيت .

أغصان الشجرة اليابسة ! كيف استطاعت العصافير العيش على أغصان شجرة يابسة ؟ قفز غراب إلى سطح البيت في مواجهتي ، وأطلق نعقتين ، ما معنى هذا ؟ أهي تحية الاستقبال ، أم انه الانذار !

ولكن . حوراء . حوراء . كيف فعلتها . أترى الندم قد غزاك الآن بعد فعلتك تلك ؟ ما أظنك كنت تعرفين ما تفعلين . أليس كذلك ؟ كان تغريراً بك . أليس كذلك ؟.

آه . أسئلة كثيرة كثيرة ، ولكن. اما من جواب ؟ أسئلة كثيرة وليس من يجيب سواك يا حوراء ، فمتى كيف . لا . . . .

الليل يتسلل وبرودة تتسرب إلى العظام ، وها هي ليلة المنفى الأولى يا أدهم فتحمل .

* * *

— ٢٩ —

ورأيت المفاجأة على وجه مريم لقدومي مبكرة إلى البيت ، فانزلقت من الباب دون أن أبالي بتحيتها استلقيت على السرير بكامل ملابسي دون أن أخشى على كية تايوري كالعادة . لم أكن استطع أن أفكر في أشياء كهذه . كان يجب أن أسترجع كل شيء . أستعيده وأفهم ما جرى .

كان هناك أشياء كثيرة تتغير وتجري بسرعة في الاسبوعين الأخيرين . دخول أدهم في حياتي وإلحاح عيونه الحيية . لميس ودعواتي إلى العشاء معها . تمتين علاقتها بي حتى أصبحت الصديقة الوحيدة لي في المدة الأخيرة . تغيرات أدهم . أناقته ، ثم حصوله على السيارة . بدا لي الأمر مغامرة لذيذة في البدء ، فان تكوني مدللة من الجميع ، مستجابة الرغبات شيء ممتع ، رغم أني يجب أن أقول الحق كنت احس شيئاً غريباً خاصاً لم أكن مقتنعة به في تصرفات لميس ، فما الذي جعلها تحبني هذا الحب المفاجيء

ما الذي جعلها تفرض صداقتها علي بهذا الالحاح ؟ ولم هذا الوقت بالذات ؟

أسئلة كثيرة كانت تلح ، وكنت أتجاهل وأستمتع ، أتراها قريبة لأدهم بطريقة ما وهي تسعى إلى زواجه ؟ وارتحت لهذا التفسير ، وأخذت أفكر في أدهم زوجاً محتملاً ، ولكن فيه أشياء كثيرة لم أكن أحبها ، جديته الدائمة ، حلمه بمدينة لا أعرف عنها إلا نتفاًمن هنا وهناك. الحزن الدائم في عينيه حتى حينما يضحك بين يدي ولكن .... يبدو ان للعادة اثراً على الانسان ؟ فان تعتادي انساناً ولا تشعري بغرابته عنك وعن أسرارك وعن لقاءاتك اليومية ، وانت تدركين في الوقت نفسه انه يحبك ربما كان هذا بداية القبول .

ولكن ان تنكشف الأمور ليتضح ان ما كانت تسعى إليه كان فقط ان يوقع لها هذه الأوراق اللعينة التي كادت تجعله يجن ، فذلك ما لم يخطر ببالي أبداً ، كان مفاجأة ، مفاجأة لم أدركها حتى حينما أعطتني عروض مشروع مدينتهم الضاحية لأقدمها له ، بدا لي الأمر وكأنه مجرد

مساعدة منهم له للخروج من أزمته وعزلته النفسية ، محاولة لتعويضه عن مدينته المفقودة التي طالما حدثاني عنها .

ولكن ان يتفجر أدهم الخيي المسكين الخجول ، القط المستجدي نظرة رضا، يتفجر ليتحول إلى مجنون يرغي ويزبد ، يشتمني ويتهمني بخيانته ويلقي الأوراق في وجهي ويندفع عاصفة غضب قاصفاً الباب من خلفه ، كل ذلك بدا لي غير مفهوم حتى جمعت الأوراق وقرأتها لأدرك ان في الأمر، شيئاً خفياً وخطيراً ، لأدرك اني يجب أن أعرف ما وراء الأمر فأخفي في حقيبتي ملخص المشروع وأدرسه فيما بعد فأعرف سبب غضبه وجنونه .

حاولت أن أفهم شيئاً من نيس التي دخلت كسيرة النفس ، ولكن كلمة لم تخرج من شفتيها واكتفت بجمع الأوراق عن الأرض ثم رصفها في مصنفها واخفاءها في درج مكتبها ، وأحسست بالحرج ، وكان لا بد ان أمضي إلى غرفتي ، فلم تبد كثير ممانعة ، ولكن ما حيرني هو اني لمحت نظرة رضا خفيفة في عينيها حين ودعتني ، وكأنها لم تكن غاضبة تماماً لتصرفه ، بل ربما كانت راضية بشكل ما .

حين عدت إلى غرفتي وأخذت سهير تسألني عن سبب الضجة التي أثارها أدهم أحسست أني لن أستطيع البقاء في الوزارة وان علي ان اخلو قليلاً مع نفسي لافهم كل ما جرى وما سيجري .

طرقت مريم الباب ، ودخلت تسألني ان كنت سأتغدى ، فنظرت إلى وجهها السمين الغبي ولم اجب ، بل انقلبت بجسدي مبتعدة عن عينيها إلى نافذة الغرفة ، وفي حنو سمعتها تهمس :

— أنت مريضة ؟

— لا — صرخت في غضب — اتركيني وحيدة .

سمعت خطواتها الصامتة تبتعد ، وتقدم أدهم ثانية بعينيه الثائرتين يلوح بيديه غاضباً ، ويتهمني بالتآمر عليه . ترى . ما المؤامرة ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وما يعني بقوله هذا ؟

رن الهاتف ، رفعت السماعة ، ثم وضعتها ثانية اقطع المكالمة ، ولكن الهاتف ما لبث ان رن ثانية . انها لميس . أعرف ذلك ، ولكني لا أريد الحديث إليها الآن ، فرفعت السماعة ثانية ووضعتها بسرعة ، وسمعت طقة

خافتة ، لا بد انها مريم الغبية تجيب ، ولا بد انها ستقول لها اني هنا ، ولا بد انها ستلح على الحديث إلي ، و كما توقعت كان ، فلقد سمعت خطواتها الهادئة تقترب . التفت إلى الباب لاشتمها ، ولكنها قالت :

— انه الاستاذ جميل . اتحبين الحديث إليه ؟

— جميل ؟ — وفكرت قليلاً — ولم لا . انه مهندس ، وربما شرح لي سر المسألة وهززت رأسي بالايجاب فانسحبت، رفعت السماعة .

— جميل

— لم لم تجيبي على مكالمتي الأولى ؟

— آه . جميل . أنا متضايقة . متضايقة جداً .

— اردت ان اودعك .

— مسافر ؟

— نعم اليوم مساء .

— لا

وبلهفة فرح قال :

— اتريدين ان ابقى ؟

وتمالكت نفسي .

ـ لا ، بل يجب ان تسافر لتجمع بعض المال ، ولكن جميل . انت مهندس اريد استشارتك في بعض الامور . هل استطيع رؤيتك ؟ .

ـ تدعيني للغذاء ؟

وفكرت قليلاً . لقد رفضت طويلاً هذه الدعوة ، فهل استجيب الآن ؟ وهززت كتفي ببساطة ، ولم لا ؟ انه سيسافر اليوم على اية حال .

ـ لا بأس .

ـ صحيح. نتغذى معاً ؟ حوراء . انت رائعة. سيكون هذا خير وداع لي .

ـ طيب . اين اراك ؟

ـ سآمر لاصحبك بالسيارة وهناك نتفق .

ـ طيب . بعد نصف ساعة ؟

ـ بعد نصف ساعة .

هززت رأسي اطمئنه وقمت إلى المرآة أتأمل ملابسي ، وافتح حقيبتي اتأكد من وجود ملخص المشروع لافهم منه ما يعرف عن مشروع المدينة ـ الضاحية .

— ٣٠ —

استلقي على الديوان احدق في عمد الايوان النخرة . متى ستقع ؟ لا بد ان تقع ، فعمر طويل انقضى منذ ان رفعت اول مرة ، ولكن ومن خلال شباك العنكبوت ، من الظلمة المتجمدة أعلى السقف وبين العمد النخرة تنبثق فجأة بيضاء ناصعة ، تتقدم شباباً من رقة وبسمة بيضاء .

ولكن . حوراء . حوراء . لم فعلت ذلك . وما الذي اردته بالفعل ؟ هل تريدين ان اتخلى عن ماضيّ ، عن لحظات السعادة في حياتي ، عن شبابي الذي ضيعته هناك ابني مدينتي التي اعطيتها اسمي ؟ ولكن . اهي مدينتي فعلاً ؟ لقد اخذوها ، سرقوها مني منذ امد وطردوني كسيفاً حسيراً الا من قناعاتي وايمان الآخرين بي ، ولكن . اتراهم يؤمنون بي فعلاً ؟

ماذا يقولون الآن في الوزارة ، اولئك الذين وصلتني نظرات تعاطفهم وشدات ايديهم على يدي في حب ، ماذا

يعتقدون ويؤمنون . اولئك الذين لا يزالون يأملون بمدن جديدة اخرى لا تعرف الفوضى ولا الاضطراب ، مدن ذات شوارع مستقيمة دون حفر ، مدن مظللة بالاشجار وموشحة بالورود والازهار ، مدن مزروعة بالمدارس والمخابز والنوادي .

ماذا يقولون بعد ان رأوني اشرب قهوتي يومياً مع لميس ، ثم اطرق باب الوزير لاحصل على سيارة ؟

أتراهم لا يزالون يؤمنون بك ؟ أم انك خسرت كل شيء ، خسرت الماضي والحاضر معاً .

آه . أي مأزق اوقعت نفسي فيه ، ولكن . . . . . . تتقدم ثانية ، اراها بثوبها النبيذي وضحكتها الكبيرة تتقدم ، تتقدم ، امد يدي لالقاها . تختفي .

جوع خفيف يقرصني . انها الحياة ، وها هو اليوم الثاني ينقضي ولا طعام ، كيف تفعل ؟ هل تخرج ؟ وماذا إن رأوك ، ولكن . كيف سيتعرفون إليك في هذا المعتزل البعيد .

استلقي ثانية . آه . شجرات السدر والدلب والحور

والصفصاف وقطيرات المطر المعلقة والنهيرات الملتفة تجري من تحتنا ، ولميس وحوراء والسعادة ، الخدم يحضرون الطعام وهي تضحك فتنتشر في المكان بهجة .

— أنا سكرى منذ البداية ، فلم الثمل ؟

وتجرع لميس كأسها حتى الثمالة ، ثم تضرب الطاولة بكأسها تبغي ملأها ، الضحك على الوجوه من حوالنا ، الغمزات والقفشات ، الوجوه السمينة الحلوة ، الافواه تلوك في فرح .

قرصات جوع وخور خفيف ، وحوراء تناولني التفاحة الفجة :

— كل .

تقولها بصوت لم اسمعه من قبل ، صوت فيه فجاجة تفاحة غير ناضجة ، السيارة تطير بنا وحوراء إلى جواري وجانب من ساقها الابيض يأتلق .

— انهم يسبقوننا .

القدم تضغط على مدعس البنزين ، والسيارة تطير وحوراء تكركر في بهجة .

– سبقناهم جميعاً . احب الرجل السباق .

ويزغرد عصفور في عمق القلب .

نسمة صغيرة ، ربما لم تكن اكثر من هبة ريح صغيرة ، ولكنها جعلتني اضطرب مذعوراً امام دوامة الاوراق تنتشر في المكان ملتفة متزوبعة محيلة البلاط الرخامي الرمادي الذي ما كدت اصدق اني رفعت عنه القذر وورق الشجر اليابس حتى تحول إلى مزبلة لم تمسها يد بشري من قبل .

جلت في المكان بناظري يائساً ، واحسست بالخيبة والمرارة والوحدة. مالي ولهذا كله ، ولم انا هنا الآن ؟ لم اضطر إلى الاختباء في هذا المكان النائي المعزول عن الطراق والزوار ؟

لم فعلت بي هذا كله يا حوراء ؟ لم اخرجتني من جنة الرضا التي كنت اعيشها ؟ كان العالم مبدأ وكتاباً وموقفاً حتى جئتني فاضطررتني إلى ان اسعى إليه بقدمي !

وكان يجب ان انتظر ، ومن يدري ، فربما ...... عدت . . . . عدت ؟

اجمع الاوراق حمراء صفراء صدئة ، اكومها في

ركن المكان افكر في احراقها. ولكني اخاف لفت نظر المستطلعين وانتشار الحريق . فأكتفي بجمعها واعادة جمعها كلما هبت الريح .

اعود إلى الديوان ثانية ، وماذا بعد يا أدهم ؟ هل ستظل في قوقعتك إلى الابد ؟ وماذا إذن ! هل اخرج منها، وإلى أين ؟ .

اخرج منها آه . كيف . كيف تخرج من قوقعة العمر ، القوقعة التي نبنيها حول اجسادنا يوماً فيوماً كتلك الحلزونة التي تقضي العمر في صنع قوقعتها قشرة قشرة ، وثنية فثنية ، وتمضي السنون وتثقل القوقعة حتى تصبح العبء تحمله الحلزونة على ظهرها . فكيف لها ان تتحرك وفوق جسدها الطري رطلان او ثلاثة من الجبس والصدف ووساخات البحر والعمر !

ولكن . ماذا يا أدهم . هل تحول ماضيك إلى عبء على ظهرك ، وماذا تظن إذن ؟ لو كنت بلا ماض ، شاباً جديداً دون ماض يبهظني حمله ، اما كان الامر اكثر سهولة ، اما كان التأقلم اهون وابسط ، اما كانت حوراء اقرب لليد والتناول ؟ .

آه ، ولكن ، انسيت سنوات البناء ، سعادة رفع الجدران وشق الشوارع وزرع الاشجار ومد الاعشاب وفرح الاطفال ورقصات الصبايا ووجنات الاطفال الممتلئة طعاماً وحباً وعرفاناً ؟ هل نسيت ذلك كله ؟ .

آه . آه . أيتها القوقعة الماضي ، الذكرى ، العبء ، التعب ، الارهاق من لي بخلعك عن ظهري لافكر دون ضغط سابق او لاحق . آه . من لي بمن يخرجني من هذه القوقعة ، قوقعة العمر دون اراقة ماء الوجه ؟ .

* * *

ـ ٣١ ـ

كنت أعرف ما سيقوله تقريباً ، كنت اعرفه ولا اعرفه فلا يمكن لادهم ان يثور ثورة كهذه لو لم يحس بضخامة العملية التي يريدون سوقه إليها ، كنت احدس منذ البداية انهم يعدون شيئاً ، ولكني لم اكون الفكرة كاملة عما يعدون حتى اخذتني من ذراعي ومضت إلى مالك :

ـ نريد اخراجه من عزلته ، وستساعديننا في هذا ، و . . . . كل هذا لو اردت الحق من اجل مستقبلكما .

هاه . مستقبلكما . ها هو الامر كما ظننت ـ حينئذ ـ يتضح . انها تخطط لمستقبلنا إذن ، ولكن . ماذا تعني بالضبط ؟ لا أعرف . اخذت الملف واردت ان العب اللعبة حتى نهايتها .

ـ من اجل مستقبلكما .

وقال جميل وهو يصفر صفرة طويلة .

– مشروع كبير ، كبير جداً يا حوراء . هل تعرفين ؟

وقلت مغلفة باللامبالاة :

– لا

– ولكن . من هم اصحاب المشروع ؟

– لا استطيع ان اخبرك .

وعرف انه لن يفيد شيئاً من الحاحه ، فالتقط زيتونة بأطراف اصابعه النظيفة الاظافر .

– ولكن ما هي ارباحه ؟

– ارباحه ؟ مبلغ كبير ، كبير جداً .

وقلت ملحة :

– كم تعتقد ؟

– اعرف الارض المعنية . انها ان اشتريت لمشروع الضاحية الجديدة ، فسيكون ربحها كبيراً .

وقلت في اصرار :

– كم ؟

– كم ؟

واخذ يهرش قليلاً في فوده الايسر بينما كان دماغه يعمل بسرعة .

— ربح شراء الارض فقط اعتقد انه سيصل إلى مئة مليون ليرة .

— مئة مليون ليرة ؟

وجاء دوري في هذه المرة لأصفر .

— نعم . . . . — ثم تابع بعد ان رشف رشفة بيرة خفيفة — ولكني لا اعتقدهم يختارونها . فالارض سيئة ، جبلية وعرة ، ونقل الخدمات المدنية إليها مكلف .

— الخدمات المدنية . ماذا تعني ؟

— لماذا تتعبين رأسك الجميل بهذه التفاصيل ؟

— احب ان اعرف .

— مياه الشرب ، الكهرباء ، المجاري ، الهواتف . انت تعرفين .

— آه . . . إذن فالامر هكذا .

— ولكن . لم تلحين على هذا الموضوع . هل اصحاب المشروع اصدقاؤك ؟

— لا ، ولكن . انت تعرف . اعمل في الوزارة نفسها واريد ان اعرف بعض المعلومات عن مشاريعها .

ـ هه . ما رأيك بهذه الاسكالوب ؟

وناولني قطعة لحم . حاولت اخذ الشوكة ، ولكنه اصر على ان يلقمها لي وكدت ارفض ، ولكنني لم اشأ مضايقته ، فأنا اريد بعض المعلومات منه ، وانفجرت السعادة فيه :

ـ حوراء . حوراء . اسمحي لي ان ابقى ، فأبقى .

وتراجعت :

ـ لا يا جميل . يجب ان تسافر . انت في حاجة إلى بعض الثروة .

ـ ولكن ما لدي منها الآن يكفيني .

ـ لا . لا . ربما يكفيك انت . . . . ولكن .

وفهم ، ورأيت بعض البؤس على وجهه ، فأردت ارضاءه :

ـ ستكتب لي من هناك . هه ؟

ـ فقط ؟

ـ الا يكفي هذا الآن ؟

واضطر إلى قبول منحتي ، فقال في رجاء :

ـ وستكتبين لي ؟

ـ بالطبع ، بالطبع .

واردت العودة إلى موضوعنا بسرعة .

– ولكن . . . . اعني المشروع .

– ما به ؟

– ارباحه من بيع الارض فقط ؟

– لا ، فهناك ربح بناء الضاحية ، ربح استيراد المواد ، ربح انقاص المواد ، اف حوراء . . مالك ولهذا كله؟ دعي هذه الامور القذرة لرؤوسنا الخشنة فقط .

وفهمت ، فالمشروع إذن كبير ، وارباحه خيالية ، ومفتاحه في يد ادهم ، وادهم يرفض ، ولكن ادهم في يدي ، واستطيع ان اقوم بضربة العمر لو عرفت كيف أتصرف .

– أنت لا تسمعيني .

وعدت إليه بسرعة .

– لا ، بل اسمعك . اسمعك جيداً .

واحسست اني يجب ان اخلو بنفسي ، يجب ان ابحث عن ادهم ، يجب ان اقنعه ، ولكن . اين مضى هذا اللعين ؟ اين اختفى ؟ لن يختفي إلى الابد . لن يستطيع . سيظهر ، وعندها لن يستطيع رفض طلباتي ، ولكن ، واحسست

فجأة بخوف عنيف . ماذا لو كان يحاول الاتصال بي الآن في البيت وانا الهو مع هذا المخنث !

– حوراء . اهناك ما يضايقك ؟

– هذه البيرة يبدو انها سببت لي صداعاً .

– اتأخذين حبة اسكربتين ؟

– لا . انا لا اتعاطى الادوية . هل ازعجك او استأذنت ؟

– ولكن ، ولكنك وعدتني بقضاء اليوم معاً . الا تريدين توديعي ؟

– كنت اتمنى ذلك ؟ ولكني متعبة . آه . الصداع يا جميل . ستسامحني أليس كذلك ؟

وبدت الخيبة على وجهه ، ولكنه لم يجرؤ على الالحاح .

– اتريدين ان اصحبك إلى البيت ؟

– لا . سآخذ تاكسي .

– ولكن . حوراء .

– ارجوك . سأكتب لك هه .

– لا بأس .

قالها آسفاً وهو يشير للميتر ، ولم انتظر ، بل سبقته إلى خارج المطعم ، واشرت إلى تاكسي ليتوقف . استطاع اللحاق بي قبل ان اركب ليقول لي : ألن تقولي لي وداعاً ؟ .

– لا – واردت اسعاده – بل إلى اللقاء . إلى اللقاء يا جميل ، وشكراً على الغداء اللطيف .

اقترب مني كأنه يود تقبيلي ، ولكني اكتفيت بشدة على كفه ، واختفيت داخل السيارة ، وانا اعطي عنواني للسائق بسرعة راجية ان استقبل هاتفاً منه في المنزل ، فمن يدري وبما كانت ضربة العمر :

* * *

– ٣٢ –

– ولكن . كيف تركته يفعل ما فعل ؟

صرخ مالك بوجهه الضفدعي الزلق .

– لا أعرف . ما توقعته يتصرف بهذه الطريقة . كنت اتصور الامر منتهياً .

– يجب البحث عنه . يجب اقناعه بأي ثمن . ادهم الآن ذئب جريح ، والذئب الجريح الطليق خطر ، خطر على الجميع أتسمعين ؟ سيحاول الآن ان يقلب الطاولة كلها . يجب ايقافه .

هززت برأسي اوافقه . فقد كان الامر خطيراً فعلاً . كيف اخطأت هذا الخطأ ؟ هل بالغت في تقدير قوتي ، ام بالغت في الانتقاص من قوقته ؟

هل بالغت في تقدير تأثيرها عليه ؟

عدت إلى مكتبي افكر . كيف مكنت الحلزونة من

الهروب إلى القوقعة ثانية ؟ هل كانت الضربة اسرع ام ابطأ مما يلزم ؟ هناك خطأ ، وخطأ خطير ان لم يصلح بسرعة فسيتحول إلى كارثة .

رفعت السماعة اطلب حوراء .

— حوراء . الا تأتين ؟

وجاءني صوتها ضعيفاً فيه مرض . يبدو انها لم تنم الليلة الماضية ، تماماً كما لم استطع النوم .

— آتية .

قالتها باختصار . وكان واضحاً انها بحاجة إلى انسان يشرح لها ما حصل ، تفتح له قلبها ، يواسيها ، ولم يكن لديها سواي ، ولم يكن لدي سواها .

ما اصعب ان يكون الخصم حليفاً لا مناص منه . وما امر ان يكون اداتك إلى من تريد الخصم الذي كان ينبغي حربه .

فتح الباب ، ودخلت . حزن واصفرار وهالات حول العينين ، واناقة لم تتخل عنها ، ورغم الاحمر والكحل المبالغ فيه عليها الا ان حزناً لا يقاوم كان بادياً عليها ، وقالت في أسى :

– كيف حصل ما حصل ؟

– يبدو انا تسرعنا بعرض المشروع عليه ، فلم يفهم الغاية النبيلة وراءه ولا تنسي ان عقدته مع المدينة الاولى لا تزال قائمة . ظننته تجاوزها ، يبدو اني اخطأت .

وقالت بهدوء :

– هاتفه لا يرد .

– ليس في بيته ، فقد ارسلت اكثر من موظف وآذن ، فلم يجدوه ، وحتى بواب البناية اعلن انه لم يره منذ يومه الفائت .

– والعمل ؟

– نبحث عنه .

– اين ؟

– لا اعرف . تصوري حتى السيارة الجديدة تخلى عنها .

– همم .

– اسمعي . ستأخذين سيارته ، وسآخذ سيارتي ، وسنبحث وسنجده ولا شك .

– وان لم نجده ؟

ـ يجب ان نجده . يجب ان نخرجه من قوقعته الغبية .

نظرت إلي طويلاً ، وللمرة الاولى أرى في عينيها اشياء لا افهمها. اطفأت سيكارتها في نفاضة السكائر ، ولم تدخن نصفها ، ثم مضت .

آه . أدهم عليك وعلى غبائك اللعنة ـ مالي ولهذا كله . كان العالم قبلك منظماً مستقيماً واضحاً . الكل يعرف ما له وما عليه ، والامور كلها تسير سيراً حسناً ، والبلد في ازدهار والمشاريع في انتشار . ايها افضل . تلك المدينة الوحيدة القائمة في الصحراء والمنذورة للموت ورمال الصحراء تغطي كل حياة فيها ، أم ما نقوم به نحن ها هنا . ها هي الجسور والانفاق ، الشوارع والاتوسترادات ، البنايات المملوءة اناساً متلهفين إلى بيوت فيها ينامون وينجبون الاطفال . غباؤك اللعين هذا ليس اكثر من مزاودة ، ليس اكثر من غباء في فهم التاريخ ، ولن نتركك تزاود علينا لتبيع وتشتري بأسمائنا وتربح مزيداً من السمعة الطيبة . المشروع سيقوم ، وفي المنطقة التي نريد ، وفي الارض التي اشتريناها . والبيوت سترتفع ، والعشاق سيتزوجون . والاطفال سيولدون ، وستظل معزولاً على رصيف التاريخ .

ولكن . لا . للاسف لا نستطيع هذا الترف . كان هذا ممكناً فيما مضى حين لم تكن هناك وسائل اعلام قادرة على جعل الاباطيل حقائق ، والتي تنتظر دائماً حبة لتجعل منها قبة .

كان من الممكن التسامح مع امثالك فيما مضى ، وتركهم معزولين يموتون مع احلامهم في بيوتهم القوقعية . اما الآن فهذا الترف لا نحتمله .

يجب ان تأتي وتشارك ، ان ترى الارض التي اخترنا وتوافق عليها ، والعرض الذي قدمنا . وتقبل به !

ادهم لقد عرفت سرنا واصبحت خطراً على الجميع ، وتستطيع بسهولة ان تتسبب بكارثة الله وحـــده يعلم ما عقابيلها . لا لقد عرفت ، ولن نستطيع تركك تهرب بمعرفتك . يجب ان تقدم وتشارك ، والا .

والا ماذا يا لميس ؟ لا اعرف . في رأسي شيء سينفجر . كان ينبغي التقرب منه بهدوء. ما كان ينبغي مفاجأته وارعابه بهذا الشكل ، ولكن كيف . كيف سنعثر عليه في مدينة كبيرة كهذه. كيف ؟

اخذت حقيبتي . نظرت إلى مكتبي بجدرانه الخشبية الغامقة وطاولته الموزاييك ومقاعده الجلدية وسجادته العجمية ، وسمعت صوت نفير يدعوني إلى النزول ، وعرفت انها حوراء تستعد مثلي . . . . للبحث عن ادهم .

* * *

- ٣٣ -

يوم كامل انقضى ونحن نبحث . فتشنا الفنادق ، سألنا نقاط الحدود ، وحتى المستشفيات ، ولكن لا اثر فقد اختفى . عدت إلى البيت كما عادت حوراء مرهقة ، مفككة الاعصاب .

اعددت لنفسي قهوة اشربها ، واخذت افكر ، وكرت سبحة الأيام وعاد ادهم فتى يتحدث عن الاحلام ، عن الصحراء الكريهة تقتل بالمدن ، عن الفوضى تصرع بالنظام ، عن المحسوبية تدك بالاستحقاق والعمل ، وكبر ادهم ، كبر حتى غطى القلب والعقل والمكان .

قلبت فنجان القهوة ، ونظرت من حولي ، الكنبات طراز لويس الرابع عشر ، السجاد العجمي ، الثريات الكريستال ، المكتبة الفخمة المحتقنة بمجلدات الكتب الاصلية . حافظة الاسطوانات المترفة باسطواناتها ، اشياء

واشياء واشياء . كيف كان لك ان تحصلي على كل هذا لو اطعته ومضيت في حماقتك إلى الصحراء تبنيانها . ها هو قد عاد كأجير الحمام يد من خلف ويد من قدام . ما الذي افاد هذا الرجل الخيالي عديم الحس التاريخي من كل ما فعل ؟ اما انت ، فلديك ما يسلي وحدتك لو شئت ، لديك ما يساعدك على الشيخوخة القادمة . وهذا ليس بالشيء القليل ، وضؤل ادهم ، ضؤل حتى تلاشى .

ولكن . لا . ادهم اين انت الآن ، أي جحر أخفاك عن العيون ، اية مؤامرة تعد لتهدم الهيكل عليك وعلينا ؟ وتسلل ادهم الفتى ثانية ، الذراع على الخصر ، والقمر في السماء ، وبردى إلى اليسار ، وحديث الاحلام الحلو ، ونما ادهم ثانية . . . . وتذكرت . . . . . تسللت الذكرى إلى الوعي بهدوء . . . . . . وعرفت . . . . عرفت ببساطة دون مقدمات ، عرفت وكأن معرفتي كانت موجودة طيلة الوقت ، انما كانت غائبة فقط . انه هناك ولا شك ، انه في بيته القديم حيث كان يختلي ايام الجامعة يدرس ويخطط للمستقبل القادم .

ووجدتني اضع معطفي الخفيف واحمل حقيبتي . ولكن هل سأعرف ذلك البيت . وكيف ؟

لم اكثر من الاسئلة ، فما يجب القيام به هو العمل . سأجد البيت ، سأجده ولو قضيت العمر كله ابحث .

ركبت السيارة ومضيت اخترق المدينة إلى الجانب العتيق فيها . . . حارة عتمة ، واكوام زبالة ، وباب خشبي مفككك الاوصال ، وطارقة نحاسية ، ولافتة عجوز تحمل اسم حارة الادهمي ، وعرفت اني وصلت ، رائحة القدم والرثاثة والتاريخ المهترىء تملأ المكان . ورفعت الطارقة النحاسية .

لا . . . . وضعتها . . . . وماذا لو لم يكن هنا ؟ ماذا لو كان البيت قد تحول شيئاً آخر . سكنه اناس آخرون ؟

حسن ، وما يعني هذا ؟ سأعتذر وامضي ، رفعت الطارقة ، ولكن ماذا ستقولين له ؟ كيف ستفسرين له الامور ؟ . كيف ستشرحين له المتغيرات ؟ لا يهم . المهم ان نلتقي ، ثم ستفسر الامور نفسها . اضربي هذه الطارقة ماذا تنتظرين ؟ واحسست ضربات القلب الهائجة مراهقة

تخاف وتتمنى لقاء الآخر . الآخر ؟ اهو الحبيب ، ام الخصم الغريب ؟

انزلقت الطارقة ، وتنفست عميقاً اهدىء ضربات القلب وارتجاف الكف وتمالكت نفسي اتمنى الا يكون هنا ، ومن يدري ، فطبيعي جداً الا يكون هنا .

رفعت الطارقة بسرعة وضربتها على الكرة النحاسية حتى لا اترك لنفسي فرصة للتردد ، وسمعت حركة في الداخل . فتسرب دم بارد إلى مؤخرة الرأس .

ها هي لحظة المواجهة ، وعليك ان تتصرفي ، عليك ان تستخدمي كل مدخرات الذكاء التي اعانتك طويلاً في سنوات الكفاح الماضية .

سمعت خطوات تتقدم ، سمعت ورق شجر يتفتت ، ثم هدأ كل شيء . انتظرت قليلاً . لا شيء . اكان وهماً ما سمعت ؟ انتظرت . لا جديد . رفعت الطارقة بيد ثابتة هذه المرة . طرقت الباب عدة طرقات قوية ، لا بد ان هناك احداً ما ، وعليه ان يجيب . سمعت تفتت اوراق تحت قدم عصبية ، هناك حركة ، هناك انسان ما في الداخل ، ولكنه يأبى الخروج . انه ادهم — عرفتها بمرارة — انه ادهم

ولا شك ، ولا يجرؤ على لقاء الناس ، واعدت الطرق ، وسمعت الخطوات تتقدم حتى سمعت حفيف تنفسه خلف الباب ، ولكن يداً لم تمتد لتنتح الباب . كان التنفس متوتراً . انه خائف . المسكين ادرك أي توتر يعيش الآن . واي رغبة في البعد عن الناس يحيا ، ولكني قادمة لعونك . افتح يا ادهم . لا شيء الا تنفس متوتر وحركة قدم خائفة عصبية على الأرض ، وادركت انه يخشى القادم المجهول فأردت طمأنته .

— انه انا يا ادهم . انا لميس . افتح .

وازدادت حشرجة التنفس وحركة القدم العصبية .

— كلنا خائفون عليك . نبحث عنك . اخرج إلينا يا ادهم

لا جواب ، وادركت اني لا زلت كما كنت في لقائنا الاول في الوزارة غير ذات اهمية له ، ادركت ان من يريد انسان آخر ، فقلت اتظاهر بالفرح :

— حوراء مريضة تبحث عنك . لم فعلت بها ما فعلت ؟

هدأ التنفس قليلاً يتسمع ، ثم ازداد التوتر المنفعل .

ـ قلبنا المدينة كلها نبحث عنك . افتح يجب ان اتحدث إلياك .

لا جواب الا التنفس الخشن .

ـ لو رأيت وجه حوراء وكيف انطفأ ، احزنتها بتصرفك كثيراً ، تبحث عنك في كل مكان . الا تريد ان تراها ؟

ـ لا .

وقلت في انتصار :

ـ كنت ادرك انك في الداخل . افتح ارجوك .

ـ لا.

ـ ادهم . يجب ان تعرف. الكل يحبونك وفي شوق إليك . اخرج إلينا. هناك امور كثيرة يجب الحديث فيها.

ـ لا . دعوني . دعوني

وسمعت صوت الاقدام تنسحب مفتتة ورق الشجر اليابس ، طرقت الباب بعنف ، كررت الطرق ، لا جواب ، ومن قلب جريح مهزوم صرخت :

ـ ادهم . ادهم .

ورأيت رؤوساً تتطاول من النوافذ والرواشن المغطاة

بالخشب المشبك . واحسست بالخجل ، فماذا تفعل امرأة في اول الليل في حارة لا تعرفها وامام بيت مهجور .

انسحبت كسيرة الخاطر . وحين وصلت إلى السيارة ادركت فجأة اني لو مضيت فلربما هرب ،وضاع من يدنا نهائياً . فما العمل إذن ؟ لن يستطيع احد اقتحام الباب عليه ، لا ، بل هناك من يستطيع ذلك الاقتحام. انها حوراء ، ولكن من سيأتي بها في هذا الليل ، وكيف ستعرف المكان ؟

لو مضيت إليها ، فلربما اختفى في غيابي . يجب ان احرس مدخل الحارة من سيارتي ها هنا وحينما يخرج وسيخرج لابتياع طعام او دخان فسأنقض عليه ، وسيمضي معي اتقاء للفضيحة ، ولكن حتى متى تنتظرين يا لميس ؟ لن تستطيعي طويل انتظار. فأنت في النهاية امرأة في منطقة عتيقة .

لم يبق امامي خيار كبير ، فاتجهت إلى اقرب بقالية ، واتصلت بها بالهاتف . انها الانسانة الوحيدة القادرة على اخراجه من الموقعة ، لا احد سواها .

لم تكن بعيدة عن جهاز الهاتف إذ سرعان ما اجابت .

وسرعان ما وافقت ودللتها على المكان ورغم انها لم تعرفه الا انها قالت انها ستعرفه .

عدت إلى السيارة واشعلت سيكارة ، واحسست ضغطة حزن تعتصر القلب ، فها انت لا تجدين مناصاً من استحضارها ، لا تجدين مفراً من الاستعانة بالخصم الحليف لاستخراج الصديق اللدود من وكره . ايه ها انت تتنازلين عن آخر امل فيه ، ولكن . هل كان لي اي امل في الماضي ؟ كنت اعرف ذلك منذ غادرنا إلى الصحراء ، ولكن كان هناك الصبا المشترك والفرح المشترك ومدينة الحلم المشترك التي بنيتماها سوية .

ها انت تسلمين كل شيء إليها ، إلى اليد الجميلة ولكن القاسية ، اليد التي لم تعرف حلماً ، ولم تبن مدينة ، ولم تخطط لمثال ابداً .

ورأيت كشاف سيارة قادمة ، وعرفت ان لحظة النهاية قد اقتربت ، وان الحلزونة ستخرج طائعة هذه المرة ، ستخرج وهي تعرف مصيرها دون خداع او وهم ابداً .

ستخرج وهي تنظر إلى الفم المفتوح المعد لاستقبالها في شهوة مستسلمة ، ستخرج دون امل في العودة ، فالقوقعة

ستحطم تماماً حال خروجها منها ، ستخرج وهي تعرف الا قوقعة بعد اليوم الا حضن الخصم الحبيب الجميل ذي البسمة الكبيرة الواسعة .

توقفت السيارة ، ورأيتها تأخذ من السائق بقية ما دفعت . . . . . . ثم تقدمت جرما طويلاً يتحرك على الارض في ثقة . تقدمت خاطة بنور كشاف سيارتي ، وجهاً ممزقاً بالظلال وعينين واسعتين متحديتين واشتد اعتصار القلب . لن تستطيعي خداعاً للنفس بعد اليوم يا لميس ، فها انت تعطين كل شيء وللمرة الاخيرة . و . . . . لها ، للصديق اللدود ، تسلمينها الامس في سبيل الغد .

فتحت باب السيارة لانزل لاستقبالها ، ولكنها اتجهت إلى الباب الآخر ، وفتحته ، فعدت . دخلت ، واشعلت سيكارة في عصبية .

— اين هو ؟

— في الداخل .

— هل قال شيئاً ؟

— رفض ان يخرج ، وهذا دورك لتصنعي شيئاً .

سحبت نفساً عميقاً من السيكارة دون ان تجيب . انها تخيفني هذه المرة . لم تعد حوراء اللاهية المعجبة بنظرات الرجال المحيطة بها تحاصرها . هناك شيء يثقلها من الداخل اتراها علقته كما علقها فعلاً ؟ اعتقد ذلك ، والا ، فما الذي يدعوها إلى مغادرة بيتها في هذا الوقت لتجيء إلى منطقة لا تعرفها وتبحث عن انسان لا يهمها .

— ماذا قال ؟

كررت السؤال .

— لم يقل شيئاً . كل ما فعل هو انه صرخ جريحاً وطلب ان نتركه وحيداً .

— همم .

همهمت لنفسها وادركت ان كائناً قوياً يتحرك في داخلها . ما الذي تغير في هذه المرأة ؟ كدت اثور واطردها واتخلص من الامر كله . . . . . ولكن . . . . لا . . . . انها حوراء ، والرجل في داخل البيت ادهم ، وادهم عرف المراد منه ، وعرف موقع الارض التي نريدها موقعاً للمشروع . يكفي ان يكون قد قرأ العناوين حتى يفهم كل شيء . لا نستطيع الآن تركه يمضي مع معرفته .

يجب ان يدخل في المشروع او يختفي إلى الابد . . . . .

وافزعتني الفكرة تجول في رأسي ، ونظرت إليها بجانب عيني . اتراها ادركت ما يجول في خاطري ، ولكن جبينها الجميل كان مغطى بالتجاعيد . كانت تفكر وتفكر بسرعة ولكن . . . . وصدمتني الفكرة ثانية . ايعقل ان افكر بهذه الطريقة أم يعقل ان يخطر في بالي ولو للحظة واحدة ان يختفي ادهم إلى الابد ؟ قالت :

— تريدين ان اراه ؟

وقلت في عصبية :

— فلم استدعيتك إذن ؟

وقالت في هدوء لم يستثر لعصبيتي :

— وتريدين ان يشارك في المشروع !

واستدركت بسرعة .

— ان يوقع على الوثائق فقط .

— وما يعني توقيعه إذن ؟ اليس المشاركة ؟

— ولكن . . . . قلت في ضعف ، فلقد صار لكلامها معنى آخر .

— اسمعي يا لميس : أنا لست بالساذجة . قد أبدو كذلك . وقد أحاول ان ابدو كذلك . ولكني است ساذجة . منذ الامس ، ومنذ ثورته . ومنذ مراجعتي لوثائق المشروع حين انطلقت وراءه عرفت اشياء جديدة .

وقلت ساخرة احاول تخفيف وقع المفاجأة علي :

— وماذا عرفت اكراماً لله ؟

— عرفت قيمة المشروع الحقيقية ، عرفت قيمة الارض التي اشتريتموها استعداداً لهذا المشروع ، عرفت موقعها الجبلي السيء ، وعرفت موقع المشاريع الاخرى ، عرفت الارباح التي ستنهال عليكم من ثمن الارض بدءاً ، ثم من تنفيذ المشروع عبر مكتبكم — القناع خارج الوزارة ، عرفت قيمة المواد التي ستستوردونها على اسم المشروع ثم تبيعون قسماً كبيراً منها في السوق السوداء ، وما ستربحون من هذا ، عرفت قيمة المواد التي ستنقص من جسم المشروع ، وما سيدر هذا كله عليكم .

وقلت منهارة :

– ولكن كيف عرفت كل هذا ؟

– لدي وسائلي الخاصة للمعرفة ، لدي اصدقائي العارفون الذين حدثوني عن مشاريعكم السابقة ، وعن سمعتها – وتوقفت قليلاً ، ثم قالت في تهذيب مصطنع – غير الحسنة .

ضغطت على القداحة الكهربائية وانتزعت سيكارة جديدة ادخنها ، واحسست بمتغيرات كثيرة تندفع تحت قدميّ ، وتمنيت لو ارى مالك يساعدني ، يفهمني ، يرشدني كيف اتصرف مع هذه العارفة الجديدة . احسست بحفرة كبيرة جداً تنفتح تحت اقدامنا جميعاً .

نفضت سيكارتها من نافذة السيارة في حركة رشيقة ، وقالت في برود :

– مجموعتكم للعمل التي ستقوم بالمشروع ستربح من ثمن الارض فقط مئة مليون ليرة . هذا هو الربح الاولي

عرق بارد تسرب من مسام الجسم كلها ، ماذا ؟ كيف ؟ من اين لها بهذه المعرفة ؟

وحشرجت :

ـــ من اين لك بهذا الرقم ؟

ـــ قلت ان لدي مصادر معرفتي الخاصة ، وليس هذا هو المهم الآن .

ـــ ما الذي تريدينه الآن ؟

قلت اريد انهاء الموضوع ، فسألتني في برود :

ـــ بل ما الذي تريدينه انت ؟

وقلت افتعل الحيوية :

ـــ ان تدخلي إليه ، وتقنعيه بالخروج من معتزله ، فهذا شيء ليس انسانياً !

وتابعت في سرعة اكتسبت حيوية الاندفاع :

ـــ أنا اعرفادهم، سيظل محاصراً في الداخل حتى يموت من الجوع والقهر !

ـــ تخافين عليه ؟

قالت ساخرة ، ففغر الجرح فاه ، كيف لك ايتها الطفلة اللاهية ان تدركي مواجع الماضي وليالي القهر والاسى ، كيف لك ان تدركي كيف يتسلل الآخر من جسدك وروحك ويتركك للخواء ، فلا تجدين تعويضاً

الا في النجاح وجني المال . كيف لك ان تدركي من ادهم، ومن كان ؟ ومن هو بالنسبة إلي الآن . كيف ؟

— لم تجيبي . تخافين عليه ؟

وقلت متلعثمة :

— بالطبع !

— فلم سقته إلى هذه الورطة إذن ؟

— اية ورطة ؟

— قلت لك لست بالساذجة . ولم اكنها يوماً . وان حاولت ان ابدوها .

— سمعت هذا الكلام منذ قليل ، ولكني لا افهم ما تعنين بالضبط .

— وتظنين اني لا افهم ما تريدين منذ البداية . لا . ليس منذ البداية تماماً وان داخلني الشك من دخولك حياتي بهذه السرعة .

— ماذا تعنين ؟

— اتظنين اني لم احس بدفعك اياي إلى ادهم ، تعريفه بي . شربنا القهوة معاً . دعوتنا إلى متنزهات المدينة !

— كانت محاولة لتسليته والخروج به من مضيق عزلته .

— ثم تعطيني الملف ، من اجل مشاريعكما المستقبلية يا حوراء — قالت جملتها الاخيرة في سخرية — الملف الذي سينقل إليكم من ربح انتقاء ارضكم فقط مئة مليون ليرة ، هذا عدا ربح تنفيذ المشروع ، تعطينه لي لاقنعه بتوقيعه تحت سحر حبه لي مجاناً .

ثم اضافت في غضب : انت تستغلين العواطف الانسانية بروح شريرة .

— حوراء انت امرأة . . . . رهيبة .

— من اضطر أن يعيش حياتي محاطاً بذئاب دائمة السعار عليه ان يكون شديد الحذر دائماً .

وبهدوء اخذت المعرفة تتشكل في اعماقي ، عرفت ما تريد ، واحسست بالراحة ، فهذا سيسهل الامور تماماً . انها تريد حصتها ، وهي في نهاية الامر على حق ، فما كان يجدر بنا ان نجعلها نشترك في عمل كهذا دون ان تنال حصتها .

وقلت ملاطفة :

— كنت قد قررت اهداءك هدية مناسبة .

ونظرت إلي نظرة مائلة في سخرية :

— خاتم ماسي ؟

— لا ، بل سيارة .

— بمئة الف ، بمئتي ألف ؟

تابعت سخريتها ، ونظرت إليها في قسوة :

— ضعي طلباتك .

— حصتي وحصة ادهم .

— ما لك ولادهم ؟

— اليس من المفترض اني اسوقه إلى المشاركة في المشروع من منطلق انا حبيبان .

ونظرت إليها في غير تصديق ، فها هي للمرة الاولى تعترف بهذا ، وان جاء في قالب السخرية ، ثم تابعت :

— ومن المفروض اني ادافع عن مصالحه .

— انت واثقة انه سيستجيب إليك ؟

— هذا شأني .

قالت في اختصار . فكرت في الامر قليلاً . وشعرت

براحة . ان التعامل بهذه الطريقة المكشوفة اكثر راحة ورأيت ان أعاملها بالطريقة نفسها فقلت بلهجة باترة :

ــ كم تريدين ؟

ــ خمسين بالمئة .

وصرخت غير مصدقة : ماذا ؟ هل جننت ؟

ــ لا . تستطيعين التأكد من هذا .

ــ ولكن . كيف . لماذا ؟ ما دورك في العمل اصلاً ؟

ــ دوري ان كل رأس مالكم غارق في المشروع ثمناً للارض ودراسات للمشروع . فان فشل وعادت الارض بوراً املاك دولة فستخسرون كل شيء. ليس هذا فحسب، بل لو ان ادهم خرج واعلن ما يعرفه واعرفه لخضعتم للتفتيش الاداري ، وانكشفت فضائح مكتبكم القناع السابقة منها واللاحقة ، وعندها لن تتوقفوا عند خسارة كل شيء فقط ، بل ربما انتهيتم إلى السجن .

وقلت في كراهية :

ــ حوراء ! اية امرأة كريهة تضمين داخل هذا الجسد الجميل .

— اشكر لك هذا الاطراء !

فتحت باب السيارة لتنزل .

— إلى اين ؟

— سأعود إلى بيتي !

— ولكن . ألن تدخلي إليه ؟

— ليس قبل الاتفاق النهائي .

— اخرجي به الآن — ولن نختلف .

— تعجبني طريقتك في المساومة — قالتها مع ضحكة هزء خفيفة — ولكني قلت كل ما لدي .

— ولكنك مجنونة . من سيدفع لك مثل هذا المبلغ ؟

— من كان في مثل ورطتكم .

— نحن لسنا في ورطة . نحن أقوياء . أقوياء جداً . لدينا اصدقاؤنا ومعارفنا ، محامونا ، ماذا تظنين ؟ هل ندخل في عملية كهذه دون حماية لظهورنا .

— اعرف هذا كله ، ولكنكم وقعتم هذه المرأة . وقعتم وقعة الشاطر ، وقعتم لانكم استحمقتم الآخرين وظننتم انكم لا تضارعون في الذكاء .

ـ حوراء . اين كنت تخفين كل هذا ؟

ـ في القلب !

قالت ضاحكة وهي تحاول اغلاق الباب ، وصرخت خائفة ان تمضي :

ـ انتظري .

ـ هه ـ قالتها في نفاد صبر .

ـ نتفاهم .

ـ على ماذا ؟

ـ على المبلغ !

ـ لقد قلت ما لدي .

ـ ولكن ما تطلبين مستحيل

ـ كل يعرف ثمن رأسه !

ـ هذا استغلال .

واصدرت ضحكة هزء وهي تحاول ان تبتعد .

ـ حوراء .

التفتت إلي .

ـ اسمعي يا لميس . احس بالنعاس ، وانا مرهقة منذ الامس ، وحتى العظم .

— ولكنك تحبينه .

واشرت إلى الداخل .

— ربما .

— ولن تتركيه يعاني العزلة والبرد والجوع في هذا البيت.

— فماذا تقترحين ؟

— ادخلي إليه .

— اهي خديعة جديدة ما تعدين ؟

— حوراء !

قلت مؤنبة وانا احس بشخصيتي الماضية تتسرب مني امامها واحس لاول مرة بأن القياد ينتقل مني إلى امرأة اخرى .

— حوراء ما ظننتك ابداً على هذه القسوة .

وضحكت في هزء ثانية :

— لقد اعجبت فيك منذ قليل حين حاولت التعامل معي على ارض الواقع . ولكنك تعودين إلى المظاهرات العاطفية .

— لن تستطيعي الادعاء انك تخلصت منه .

— لم ادع هذا ابداً .

– فما الذي يجعلك تتخلين عنه في مثل هذا الظرف ؟

– ارأيت . ها انت تعودين إلى الابتزاز العاطفي .

واحسستني عاجزة تماماً امامها :

– حوراء . نحن صديقتان قديمتان ، ولن نحطم هذه الصداقة في نزوة غضب . تعالي نتفاهم .

قلت ما لدي .

– ولكنني لا املك التصرف في مستوى كهذا .

– استشيري أصدقاءك .

– الآن ؟

– نعم . لا بد انهم في اقصى حالات التوتر ، وينتظرون هاتفاً منك .

اللعنة . كأنها تقرأ ما في قلبي . كأنها تدرك ما يجول في اذهانهم جميعاً الآن .

– وانت ؟

– ماذا عني ؟

– ماذا ستصنعين إذا غادرت لاهتف لهم ؟

ـ سأنتظرك في السيارة .

وادركت الفكرة ، ووجدتها معقولة ، فلو غادرنا سوية ، فلربما خرج من قوقعته واختفى ولن نعثر عليه ولكنها لو بقيت ، فستستبقيه حتى نصل إلى حل .

ـ لا بأس .

نزلت من السيارة ابحث عن بقالية اهتف منها لمالك والاصدقاء ابشرهم بأن حوراء قد امسكت بالخيوط كلها الآن ، وانها الوحيدة التي تستطيع انقاذ او تدمير كل شيء !

ولكن حين رأيت سيارة تاكسي تمر إلى جواري رأيت من الافضل الذهاب إلى مالك والحديث إليه شخصياً ، فموضوع كهذا لا يناقش في الهاتف .

* * *

- ٣٤ -

يضيق العالم ، يضيق حتى يصبح اضيق من سم الخياط ، يضيق حتى لا يغدو هناك ملجأ إلا رحم الارض الام ، يضيق حتى لا يتبقى امامك مخرج الا الموت او الفضيحة وخسارة الماضي ، خسارة الشباب ، الامل الذي رعيته بماء العيون واهدابها . انهم لا يطلبون إليك الكثير ، سنوات شبابك تذروها للريح . لا شيء آخر ، شباب كامل ، حلم كامل ، سنوات الحرقة واللهفة والامل ، تشاهد البناء ينمو ، يفرع ، يغصن ، يجذع حتى يغدو دوحة حجمها حجم الامل ، ثم يسرقون منك الدوحة ولا يكتفون بها ، بل ويريدون ايضاً حرمانك حتى من احتضان ذكرى ما اخذوه .

آه . ما كان لهم ان يفرحوا بهذا لو لاك ، لو لاك ايتها البسمة الكبيرة البيضاء التي انفتحت فانفتحت الجنات . واشرقت فأشرقت السعادة . واضاءت فابتهج العالم .

كيف . كيف استطعت ذلك يا حوراء وانا البري العصي على التدجين ، انا الوحشي روض الصحراء ، كيف استطعت ذلك يا حوراء وانا المتأبي على النساء . ابداً ما احببت حديثهن ، وما طربت لثرثرتهن يوماً ، وحينما كانوا يحدثوني عن افلاطون واحتقاره للمرأة ذلك المخلوق الثرثار الناقص ، واحترامه للرجال وتلاقح الافكار معهم كنت اجده على حق ، وان لم تهف نفسي إلى افلاطونيته كاملة ، ولكنك انبثقت فجأة ، خرجت كشهاب مندفع من سماء لم تتح لي فرصة العروج إليها ، فاضأت واحتللت ، وملكت ، وكان علي ان استسلم ، واستسلمت ، ولكن .

ها انذا سجين الماضي في قوقعة حافلة بالورق الاصفر والشجراليابس، فرح بنجاتي من براثنهم، سعيد بأني انقذت ما استطعت من شرفي ، ولكنهم مصرون ، يعرفون مايريدون، يلاحقونني حتى إلى معتزلي الذي ما ظننت احداً يعرفه .

تطرق الباب ، تطمئنني لتعلن انها لميس صديقة الامس ، وشريكة خصوم اليوم .كيف استطاعت ان تخدعني كل هذه الفترة ؟ كيف استطاعت ان تقودني

إلى هذا المأزق ؟ وهم ؟ اولئك الذين رأيت الفرح في عيونهم والحب في شد ايديهم على يدي . ماذا يقولون الآن ؟ اية خيبة يعيشون ؟

هه . انهم مجرد متفرجين . لم يحاولوا يوماً ان يحولوا حبهم وتعاطفهم حتى الى زيارة مجاملة. كانوا يخافون ان توضع اسماؤهم ضمن اولئك المغضوب عليهم ، فيخسروا كثيراً من امتيازاتهم .

خور خفيف ونسمة باردة تغلف المكان، وماذا يا ادهم ؟ هل ستظل في معتزلك هذا حتى الموت ؟ أفأمضي إذن ؟ إلى اين ؟ وحوراء؟ حوراء ... وتنبثق امامي بسمة كبيرة بيضاء وشعراً كثيثاً ينتشر من حولها غمامة وهالة . قالت :

– احب الرجل القوي .

– وقالت لميس :

– افضل الاقوياء من كانت قوتهم في رؤوسهم .

وقالت :

– احب الرجل السباق .

وقالت لميس :

– لقد بنى مدينة وانشأ حلم

وقالت :

– احب الرجل يمسك بمقود سيارته كما مسك بمقود العالم .

وهمست لميس :

– لو شئت لكان الامر سهلاً .

وقالت تحمل التفاحة الفجة تقربها من فمي :

– كل .

واكلت واتسعت الجنة حتى شملت القلب ، ولكن . حوراء . حوراء اين انت ؟ ها هي لميس التي تعرف ما تريد قد عرفت وجاءت ، وهاجمت ، اما انت فتركتني للوحدة والعذاب وتأنيب الضمير . كيف ؟ كيف خدعوك ، فجعلوك تأتيني بتلك المستندات أوقعها ، فأجعلهم يبنون مدينة زائفة ، بيوتها مسروقة الاسمنت ، وجذوعها منقوصة الحديد ، وشوارعها مسكونة بالحفر وروحها موبوءة بالخديعة والرشوة والفساد ؟

ولكن . . . . آه يا حوراء . احس بالبرد والوحشة والوحدة ، لو كنت معي ، لو كنت معي لاعدنا بناء العالم ، لاعدنا تسميته ، لو كنت معي لنشرنا فيه الاشجار

والغابات ، لو كنت معي لشققنا الشوارع وبنينا المدارس والمخابز وملاعب الاطفال ، لو كنت معي لخلقنا نوادي للعشاق والمتعبين ، لو كنت معي ، آه لو كنت معي ، ولكني اعرفك ، اعرف شهواتك الارضية ومتعك الدنيوية ، اعرف حبك للترف وملذات العالم ، اعرف عشقك للماس والفرو والسيارات .

آه ايها القلب ، ايها الضعيف المتخاذل ، آه ايها القلب العجوز تهب للصراع حين فات اوان الصراع . آه ايها القلب . كيف وقعت هذه الوقعة ، ومع من ؟ مع حوراء ، حوراء التي ارى فيها كل ما اكره في هذا العالم ، ومع ذلك فقد احببتها ، حوراء البنت البكر لعالم الاستهلاك والفساد المفسد ، حوراء مدللة الكسل والرفاهية ودنيوية الاحاسيس والمشاعر ، ومع ذلك فقد احببتها . ايه أي عالم انت ايها القلب ، واي كوامن لا اعرفها تختفي فيك ؟

اسمع طرقاً على الباب . انها لميس ثانية . ماذا تريد . لا . لن اراها ولن استمع إليها ، ويكفيني ما جاءني منها .

الطرق يتكرر ، ثم صوت ينادي ادهم. انه صوتها ! حوراء ، قطرات المطر على ورق الشجر ، تسللات الشمس

في ستارة الصباح ، نسمة الربيع في الليل الدافىء . آه حوراء . ما الذي جاء بك . اية سعادة، اية فرحةللقلب الموجع المتعب الوحيد المهجور المعزول دون اصدقاء او احباء او فرح .

يطرق الباب ثانية ويتسلل الصوت اعلى من الهمس واخفض من الصراخ .اسمع ادهم فأحب (ادهم) .

ـ افتح بسرعة .

تهتز الشجرة اليابسة ويتطاير الورق الاصفر الصدىء ، وتهرب دويبات الارض . افتحالباب ، فتنهمر حوراء كما الفرح .

ـ تعال بسرعة .

قالت وهي تمسك بيدي .

ـ إلى اين ؟

ـ لا وقت للاجابة . تعال الآن .

تمسك بيدي ، فيهتز العالم . تشدني ، فتنزلق القدمان . تمضي ، فلا املك الا الانقياد . ينغلق الباب ، فتدوِّم الاوراق الصدئة وامضي معها .

ارى سيارة لميس واتوتر .

– تعال انها ليست هنا

– ولكن ما الامر ؟

– ارجوك يا ادهم . ألا تثق بي ؟

ونظرت إلى الوجه الجميل ، إلى البسمة البيضاء ، لم تفارق الوجه الجميل حتى في اضيق اللحظات . اثق بك ؟ وبمن اثق ان لم اثق بالفرح . تعال .

واندفعت وراءها إلى السيارة. اركب إلى جوارها . تعمل السيارة، وتندفع خارجة من المدينة العتيقة .

– ولكن . ما معنى هذا ؟

قلت في ضيق .

– كانت لميس تنتظر امام الحارة .

– هه .

– وكان نقاش بيننا .

– أي نقاش ؟

– لن اقول الآن . سامحني في هذا .

– اسامحك ؟ وهل استطعت يوماً الا السماح ؟

وتابعت :

– وقد مضت لاستشارة أصدقائها على ما اعتقد .

ـ استشارتهم في ماذا ؟

ـ لا اعرف ، ولاني لا اعرف ، فقد رأيت الفرار بك خفية ان يجري شيء لا اريده .

آه . لم ظلمتك ايتها الحبيبة . لقد كنت مخدوعة ، ولم تكوني الشريكة إذن ، انظر إلى وجهها الجانبي ، واحسني اذوب ، اتمنى لو اضمها إلى قلبي حتى يختلط الدمان !

* * *

ـ ٣٥ ـ

كانت المفاجأة حقيقية ، صدمة كاملة لم نتوقعها ، وكنت أول من أحس بها ، فقد فتشت بعيني عن السيارة حيث تركتها ، فلم أجدها ، وللحق فقد نبض فيَّ فرح صغير خفي . لم أكن اتصوره يفعلها ، ويختفي الحلم . صحيح انه لم يتبق لي منه شيء ، ولكن . لا بأس أن يبقى في هذا العالم أمل صغير ما .

كان مالك قد ثار ثورة بلا حدود ما رأيته عليها منذ عرفته أول مرة .

ـ خمسون بالمئة ـ صرخ ـ هذه سرقة ، هذا قتل ، هذا مص دماء

وقلت مستسلمة :

ـ لقد أمسكت بكل الخيوط في احكام متناه .

ـ إنها تحلم

ـ ولكنهم قد يفضحوننا . لا تنس هذا . كل ما جنيناه جميعاً في السنوات السابقة من مال ، مكتبنا الهندسي ، مشاريعنا كلها مهددة بالدمار الكامل ، ليس هذا فحسب ، بل وربما حتى حريتنا الشخصية .

ـ لا . لن يفرحوا بهذا . انت لا تعرفين مالكحتى الآن.

ـ ماذا ستصنع ؟

ـ سترين .

كان وجهه السمين الذي اعتاد تقنيعه بضحكة تمتد من الأذن إلى الأذن قد اربد ، فانتشرت الغضون تحت العينين والهم في الجبين وما بين الحاجبين والشر في النظرة . أمسك بالهاتف وطلب رقماً لم يجب ، وحين التفت إلي لم أعرفه ، وفزعت . لا . لست ابالغ ، بل كان وجهاً آخر تماماً ما نظر إلي به . نظر طويلاً حتى ارتبكت ، ثم انطلق إلى الغرفة التالية ، وسمعت رنين الهاتف . ما الذي يجري ؟ ماذا يريد هذا الرجل ؟ أي أمور يعد ؟

أسئلة كثيرة أزعجتني وأخافتني ، وجعلتني أحس بكآبة تسللت وتسللت حتى سيطرت ، فلعنت ساعة فكرنا بإشراك ادهم في العمل معنا ولعنت ساعة رأيته ، وساعة أخرجوه من مدينته الملقاة في عمق الصحراء .

ـ هيا .

قال مالك .

ـ إلى أين ؟

— إلى حيث ادهم .

— ولكنه مبلغ كبير .

صرخت .

— ومن قال إنا سندفع ؟

— فماذا أنت صانع إذن ؟

— سنحاول إقناعه .

ولم تكن طريقتـــه في الكلام تعني الاقناع حقاً ، فألححت

— كيف ؟

— لميس . ارجوك لا داعي للمناقشة الآن . تعالي .

واندفعت وراءه . كانت المرة الثانية أزوره في بيته ، في المرة الأولى وقعنا عقود الشركة ، واتفقنا على التفاصيل ، وهذه هي المرة الثانية أضطر إلى زيارته لأبشره بأن كل شيء في طريقه إلى الانهيار .

اندفع رجلان إلى مالك وحدثاه باحترام ، ولم افهم ، فتركتهما واتجهت إلى سيارته ، فركبتها بانتظار اللحاق بي ، ولم يتأخر إذ دخل السيارة وأعملها ، وتحرك بعد أن أعطيته العنوان .

— مالك ، ما الذي ستصنعه ؟ .

— لا شيء .

— ولكن هذين الرجلين . . . . ثم . . . لا أظنك ستدفع له خمسين بالمئة .

اوقف السيارة بعنف كاد يجعل السيارة الأخرى تصدمنا ، والتفت إلي :

— اسمعي يا لميس . كل هذه المشاكل كانت بسببك .

— بسببي أنا ؟ لماذا ؟

— كان يجب أن تبتي في امر الرجل منذ اللحظة الأولى . لو حزمت منذ البدء لأرحتنا من مشاكل كثيرة .

— والآن . ألا يمكن تدارك الامر ؟

— يمكن ، ولكنك بتلكؤك تجبرينني الآن على الالتزام بالخطوة الاخيرة .

— مالك — قلت في رعب — إنك لن تؤذيه . نستطيع أن نقوم بشيء آخر أليس كذلك ؟

— اسمعي يا لميس — اخذ يتكلم بهدوء كمن يكلم طفلاً يحاول اقناعه — كان بإمكاننا أن نحصل على المناقصة

بهدوء لو لم يوجد ادهم . كان بامكاننا ان (نطبقها) بطريقة ما مع لجنة الاستلام ، كان بإمكاننا القيام بأشياء كثيرة ، ولكن أن ننتظر حتى تستلم لجنة الاستلام طلبات المناقصة والأراضي من كل المشتركين ، ثم لا تستلم منا ، وألا يبقى على انتهاء زمن المناقصة إلا ايام قليلة ، وأن يعرف رئيس لجنة الاستلام بمواصفات ارضنا ومخططاتنا ثم يرفضها ويختفي حتى ينتهي وقت الاستلام ، فهذا ليس له سوى معنى واحد .

– الخراب .

همست .

– تماماً الخراب لنا جميعاً . ودمار كل ما قمنا به وبنيناه حتى الآن . هل فهمت الآن ؟

– ولكن . . . .

– لا لكن بعد الآن يا لميس . ليس من خيار يجب أن يرضخ أو . . .

– أو ماذا ؟

– أو نرضخ .

– ولكنا لا نستطيع يا مالك . لا نستطيع أن نرضخ .

ـ ولهذا جئت بهذين الصديقين .

ـ من هما ؟

ـ صديقان قديمان ـ قال مشيحاً بيده وهو يشغل السيارة ثانية ثم غمغم ـ أحتفظ بهما للملمات .

اندفعت السيارة ثانية ، وقلت في رجاء :

ـ ولكنك لن تؤذيه . هه ؟ .

وقال في برود :

ـ سأحاول ألا يؤذينا يا لميس .

لم استطع الاستمرار في النقاش . منهكة ، مرهقة متعبة كنت ، فهذا هو يومي الثاني من القلق والاضطراب والبحث وصدمات التكشف ، فقلت في صوت ضعيف كأني أكلم نفسي :

ـ كان يمكن لعرضنا أن يقبل بهدوء لو لا هذه الشكليات اللعينة ، مناقصة وعروض ، ورشوة ، ولجنة استلام .

فقال في حزن :

ـ لا بد لكل زواج من مأذون وعقد وشهود .

وضحكت للتشبيه في حزن ، و كنا قد اقتربنا من المكان ، فقلت في ضعف .

— مالك . إنك لن تؤذيه هه .

لم يجب لأنا كنا قد وصلنا اول الشارع الضيق .

— هل هذا هو الشارع ؟

وفتشت بعيني عن السيارة ، ولكني لم أرها ، فأوقف السيارة في عنف صارخاً :

— اهذا هو الشارع ؟

— نعم .

— فلم انت حائرة إذن ؟

— لا ارى سيارتي .

— ولكنك قلت انك تركتها هنا !

— صحيح. دعنا نتقدم قليلاً ، ربما اضطرت إلى تغيير مكانها

كانت المفاجأة أن السيارة اختفت ، واختفت حوراء معها ، وتحركت بذرة شك صغيرة في قلبي .

— لميس . هناك شيء لا أفهمه .

كان قد نزل من السيارة أمام الحارة التي تحمل اسم حارة الأدهمي .

ـ ربما دخلت إليه . تعال .

أشار بيده ، فهبط الرجلان من السيارة الاخرى .

ـ اين البيت ؟

ـ ولكن . . .

وأشرت إلى الرجلين الآخرين خفية أتساءل .

ـ لميس . يجب أن نريهم العين الحمراء . أمثال حوراء وادهم من الهواة يظنون الامر سهلاً ، وانهم ما ان يكتشفوا امراً حتى يستطيعوا ابتزازه ولكنهم ينسون أن لأمثالي مخالب حادة ايضاً .

ـ مالك .

قلت في إصرار وقد توقفت عن المسير ، فالتفت إلي .

ـ ماذا ستصنع ؟

ـ لا شيء ـ قال بحياد ـ سأحاول اقناعهما .

ـ ستستخدم العنف ؟

ـ للإرهاب فقط . تعالي .

ـ يجب ان اعرف كل شيء مسبقاً .

— لميس . أصبحت كثيرة الشكوك . اسمعي . هذان الهاويان يعرفان أنهما يملكان ورقة رابحة ولكنهما يحسان بعض الخوف من ان تكون مسمومة ايضاً .

— ماذا ستصنع ؟

كان عقلي قد تبلد عند سؤال واحد فقط ماذا سيصنع ؟

لا شيء . بعض الهوبرات والصراخ والتهديد .

سيجعلهم يشعرون بضعف موقفهم ويرضون بلقمة معقولة .

— لا أكثر من ذلك ؟

— لا . صدقيني . تعالي .

شدني من ذراعي . وصلنا الباب القديم ، وكان مغلقاً ، مغلفاً بالصمت والإهمال والعنكبوت .

— أهذا هو الباب ؟

هززت برأسي في ضعف ، فلقد أفلتت الامور من سيطرتي . طرق مالك الباب في عنف ، ولكن لا رد . أعاد الطرق ، ولم يجب احد. أشار إلى احد الرجلين وراءنا ، فاندفع ورفس الباب رفسة انفتح لها المصراعان حتى اصطدما بجداري الدهليز .

ارتفع مسدس مالك ، وكأن حركته كانت الإشارة إذ سحب كل من الرجلين مسدسه وانطلقوا إلى الداخل يبحثون عن ادهم وحوراء .

كنت أسمع صوت الاشياء تنقلب والزجاج يتحطم حين شدني مالك من يدي .

— تعالي .

طاوعته في استسلام ودخلت الدهليز الرطب المعتم الذي لم ادخله منذ سنوات طويلة ، طويلة .

كانت أنوار البطاريات تثقب سواد المكان . اتجهت إلى البحرة ، البحرة ، البحرة القديمة ، استندت إلى جدارها ، وتسللت إلى أنفي رائحة الأشنات القديمة والصبا ، ورأيته بعينيه الحادتين يشير في عصبية إلى مخطط على الطاولة كان يحلم بتغيير الزمان والبحث عن امل للانسان .

كانت جديته وإيمانه يسحرانني ، فأحببته . كان اخلاصه وفرحه القادم يأسرانني فأحببته ، ولكن حين قرر الرحيل لم أستطع . . . .

— لا يوجد احد في البيت .

قال أحد الرجلين :

– متأكدة أن هذا هو البيت ؟

متأكدة ؟ هه ، ونظرت إلى المكان أمسحه بعيني ، الشجرة اليابسة ، متسلقات الياسمين واللبلاب ، الإيوان العتيق . تقدمت باتجاهه وأنارت البطاريات المكان . كان الديوان منفوضاً وورق الشجر اليابس مكوماً جانباً ، ومعطف ادهم المتسخ المغبر مرمياً جانباً .

حملته .

– إنه معطف ادهم .

– ما معنى كل هذا ؟

صرخ في عصبية ، واضطررت إلى ان اقول مستسلمة :

– لقد كانت أذكى منا جميعاً ، ففرت به وبذلك احتفظت بكل الاوراق الرابحة معها .

– ولكنها أخذت سيارتك .

– صحيح .

ضرب بيده في ضيق على جذع الشجرة اليابس :

– لقد استطاعت خداعنا . من كان يظن ؟

ــ والعمل ؟

اشار إلى الرجلين ، فخرجا ، ونظرت إليه في خوف لأول مرة . ماذا سيصنع ؟

ــ مالك . ماذا ستصنع ؟

ــ أفكر . دعيني أفكر .

ثم ، وكأنما اشرقت الفكرة في ذهنه فجأة :

ــ أكانت اوراق السيارة فيها ؟

ــ كالعادة .

ــ وتركت لها المفاتيح ؟

قالها هازئاً .

ــ بالطبع .

تنهد في غيظ وتابع :

ــ اسمعي . سنجدهما الآن ، وبسرعة ، وقبل أن يمضيا إلى أي مكان .

ــ كيف ؟

ــ سنجعل الشرطة تبحث عنهما .

ــ هل جننت ؟ نسلم اسرارنا إلى الشرطة ؟

– لا ، بل سنعلن عن سرقة السيارة ، وستبحث الشرطة عنهما لتقودنا إليهما بكل بساطة .

– ولكنهما سيعترفان للشرطة بالأسرار التي يعرفانها .

– لن يضطرا إلى ذلك . لأنا ما إن نراهما حتى نعلن للشرطة عن خطئنا وأنهما صديقان استعارا السيارة دون علمنا ، ثم وحين نخلو بهما سنجد طريقة ما لإقناعهما .

– هه . فكرة معقولة .

ركبنا السيارة ، ومضى الرجلان إلى حيث ارسلهما مالك ، ومضيت معه إلى المخفر لنقدم شكوى عن سرقة السيارة .

* * *

— ٣٦ —

يقولون عن الجنة إنها لا يمكن ان تكون أرضية ، ولكنها كانت على الارض هذه المرة . من كان يصدق . انا وحوراء في مكان واحد بعيدين عن لميس والعيون المستطلعة .

قالت :

— أنا آسفة يا ادهم ، ولكن كان يجب أن أقوم بهذا .

— لم اعد افهم شيئاً . لم اعد افهم شيئاً .

— بعد ان تتناول شيئاً من الطعام ستفهم الكثير .

اشارت إلى خادم الفندق في رشاقة ، فسعى مسحوراً ككل من يقع تحت سيطرة بسمتها ، وطلبت الغداء .

— لا شك أنك جائع بعد هذا الصوم غير المعقول .

— كنت غاضباً من كل هذا العالم يا حوراء .

— حتى مني انا ؟

ــ لم أتصور كيف سقتني إلى هذا المأزق ، والكني عرفت الآن أنك كنت ضحية للخديعة نفسها .

ضحكت في خفة ونظرت إلى السهل الممتد تحت في البعيد ولم تجب .

ــ ولكن . لم أعدت السيارة ؟

ــ تظن ليس انها ذكية ، وتظن الآخرين سذجاً ما أسهل خداعهم .

ــ همم . هناك شيء تريدين قوله .

وحضر الطعام . كان الجوع أقوى مني . ولكن حضورها كان أقوى من الجوع وعرفت ذلك ، فقالت :

ــ سآكل . ألا تحب مشاركتي ؟

وأكلنا ، فقالت :

ــ ستبلغ عن سرقة السيارة الآن ، وستبحث الشرطة عنها ، ومن السهل العثور عليها

ــ صحيح .

ــ وكان من الممكن تركها في أي مكان .

ــ اعتبرت أخذها إلى بيتها مغامرة لا معنى لها

– هذا صحيح ولكني أردت أن أفهمها أني أستطيع فهم تصرفاتها ، وكنت أريد ان أصعقها حين تجدها .

– حوراء . من اين لك بكل هذا الحذق ؟

– ادهم . سأعترف لك بشيء صغير .

– هه .

– أعجبتني طيبتك واستقامتك منذ لحظة عرفتك .

آه . زغردي يا عصافير العالم ، فها هي طاقة جديدة تنفتح على السعادة . قالت جملتها الاخيرة دون ان تنظر إلي ، بل كانت تنظر إلى السهل هاربة من عيني .

– حوراء . حوراء

– ارجوك . دعنا نتصرف بهدوء دون لفت انظار هؤلاء الناس إلينا .

وتمالكت نفسي :

– لا بأس .

– كنت أحس بأن هناك شيئاً تسعى لميس وراءه ، ولم اكن أدركه .

– وأدركته الآن ؟

ـ متأخرة جداً ولكن . . . . . بعد أن اعتدت عليك

ـ فقط ؟

قلت متحسراً .

ـ لا تجبرني على قول شيء لا أحب قوله الآن .

قالت في خجل وود ، فهمهمت في تفهم ، وتناولت زجاجة النبيذ الابيض فملأت كأسي ، ثم كأسها . كان في حركتها من الود والعادية ما يشعرك بالألفة العائلية دون تكلف أو افتعال ، واحسست أني اعرفها منذ زمن قديم ، قديم جداً ، ربما قبل ان تولد ، وربما قبل ان أولد . أمسكت بكفها في شكران ، فتركت يدها ذلك المخلوق الصغير الناعم الابيض بين اصابعي ، ثم سحبتها في لطف . وقالت :

ـ كنت اراها تدفعني إليك ، وأحسها تدفعك إلي .

ـ كان هذا أجمل ما قامت به في حياتها .

وتابعت دون تعليق على ما قلت :

ـ وتساءلت ما الذي تريده ؟

فقلت في نقمة :

ـ كان هناك تلك المدينة الفاسدة التي تريد بناءها .

– هذا ما ادركته فيما بعد ، وإن متأخرة جداً .

– حسن أنك اكتشفت ذلك على اية حال .

– صحيح ، ولكن المدينة كانت ستبنى على أية حال .

وقلت في حسرة :

– اعرف ذلك .

– ستبنى بإرادتنا او رغماً عنا .

– لا . نستطيع حربها . نستطيع الإعلان عن فسادها ، عن سوء الارض ، عن فساد المواد التي ستستخدم .

وقالت في حزن :

– ستكون معركة بلا معنى يا ادهم .

– ولكن . لماذا ؟

– لأن من سيقومون بالمشروع في ضاحية أخرى وبأسماء اخرى لن يكونوا أفضل . سيستخدمون المواد نفسها وسينشئون الشوارع نفسها المليئة بالحفر والبنايات صغيرة الغرف ، والشرفات عديمة الضوء والمدارس بلا قلوب .

– .والعمل ؟ نستسلم أمامهم

–لا . لا اقصد ان نستسلم ، ولكن . اسمع هل شبعت ؟

كنت قد توقفت عن الطعام منذ برهة .

ــ أعتقد ذلك .

ــ ماذا لو تمشينا قليلاً . المناظر جميلة من الطريق . هه؟

ووافقت .

خلفنا الفندق وراءنا ومشينا . كان الخريف ، وكان المصطافون القلة ، وكانت حوراء . البسمة البيضاء لم تفارق ، والبشر المشع من أحولنا ، ولكنها كانت حوراء اخرى . كنت أحس شيئاً خاصاً لم افهمه . قالت :

ــ تعرفني . أحب السعادة ، أحب الرحلات ، أحب القوة .

وكنت أهز برأسي لتتابع كلامها .

ــ وعرفت لميس ذلك .

ــ وعرفته ايضاً .

قلت محاولاً أن أمزح ، ولم تعلق على نكتتي .

ــ اتعرف كم سيكون ربح مشروعهم ؟

ــ استطيع تخمينه وإن كنت لا اعرف الرقم بالتحديد .

ــ سيكون هناك ربح أولي من بيع الارض لمشروع الضاحية النموذجية فقط مئة مليون ليرة .

وقلت في حزن :

ـ اعتقد ذلك :

ـ عدا ربح المواد التي سيستوردونها على اسم المشروع ، ثم يبيعونها في السوق السوداء ؟

ـ همم .

صادقت على قولها .

ـ وعدا ربح المواد التي سينقصونها من جسم المشروع حديداً واسمنتاً و . . . .

ـ اعرف . اعرف .

ثم فكرت .

ـ همم .

ولكنها صمتت .

ـ تابعي .

ـ ماذا لو . . . . قررت الزواج من ادهم ؟

ـ همم .

حثثتها على الإكمال في فرح .

ـ كيف سنعيش ؟

ـ لدي راتبي العالي كمهندس .

ـ لن يكفينا . فأنا كما اخبرتك أحب الرحلات ، أحب الرفاهية ، أحب اشياء كثيرة لا يستطيع راتبك المحدود تأمينها .

ـ استطيع العمل في مكتب هندسي في المساء .

ـ لا أريد ان اخسرك في المساء . اريدك إلى جانبي .

ونظرت إليها في وله :

ـ حوراء . أحقاً ما تقولين ؟

وهزت رأسها في إيجاب دون ان تنظر إلي . مشينا صامتين لفترة لا نجد ما نقوله .

ـ نعود ؟

ـ نعم .

واتجهنا عائدين . كان العالم قد تغير في كلمة ، وبدا كل شيء فجأة اكثر ازدهاء وبشراً :

ـ حوراء .

ـ همم .

ـ سأفعل كل ما بوسعي لأدخل السرور إلى قلبك .

ـ اعرف ، ولكن ماذا افعل مع عاداتي التافهة؟

ـ سنحاول التوفيق بينها وبين إمكاناتنا .

ـ آسفة يا ادهم . آسفة أني أدخل الالم إلى قلبك ، ولكني سأكون حزينة لو حرمتني من متعي الصغيرة .

كنا قد وصلنا الفندق . اتجهنا إلى الممر الذي يؤدي إلى غرفتينا ، واحسست بالحزن يحيط بها رغم السرور الذي ادخلته على حياتي في كلمتين ، كلمتين اثنتين فقط .

وصلت باب غرفتها ، وبينما كانت تضع المفتاح في ثقب الباب لتفتحه سقط منها إذ كانت اصابعها ترتعش ، انحنيت ، رفعت المفتاح ، فتحت الباب ، وفجأة ، ولست ادري كيف حصل ما حصل . ولكنه حصل ! مالت علي فجأة وقبلتني ، قبلتني بخفة ، قبلة مرت على وجهي كهمسة ليل ناعمة ، ثم اندفعت إلى غرفتها ، فأغلقت الباب خلفها . واختفت .

كان صاعقة حقيقية ما انقض علي :

— حوراء .

نقرت الباب بخفة ، ولكنها لم ترد :

— حوراء — كلمة واحدة ارجوك .

لم ترد ، واحسست بالخجل من أن يمر احدويراني أطرق بابها ، فانسحبت إلى غرفتي ، وتركت الباب مفتوحاً . واستلقيت أعيشها .

- ٣٧ -

يبدو ان مفاجآت هذه المرأة لن تنتهي ، ففي يومين اثنين فقط قفزت في تقديري لها عدة قفزات ، فها أنذا اتعامل مع امرأة تعرف ما تريد ، وتستطيع صنعه بسهولة .

قدمنا شكوى عن فقد السيارة في قسم المرور ، فأخذوا المعلومات كاملة ، وعاد بي مالك إلى منزلي والصمت يخيم علينا . هو يفكر في طريقة لإعادة الامور إلى نصابها وانا افكر في تسرب ادهم النهائي من اصابعي . ليس ادهم المهندس ، بل ادهم الذكرى والصبا والايام الماضية ها هو يتسرب مني إليها ، وها هي تستولي عليه كاملاً ، ماضياً ومستقبلاً لتختفي به .

وقف مالك بالسيارة امام بنايتنا ، ثم صرخ في غير فهم حين رأيتها واقفة امام المدخل .

— لميس . أليست هذه سيارتك ؟

وقلت في عادية :

– نعم .

– ولكن . كيف ؟ تكادين تقودينني إلى الجنون . ما معنى هذا كله ؟

– لا تفسير لدي .

– ولكن . لا بد من تفسير لهذا كله .

وقلت في مرارة باردة :

– إنها رسالة ترسلها إلينا . انها تقول انا اعرف ما تريدون ، ما ستفعلون ، ولن تستطيعوا صنع أي شيء .

– لم أفهم .

– توقعت ان نرسل الشرطة في اثرها ، فجاءت بالسيارة إلى بيتي لتظهر خيبتنا امام الشرطة .

– غير معقول . هل استطاعت ان تفكر بهذه الطريقة ؟

وهززت برأسي في استسلام ، فقد أدركت أنا لن نستطيع صنع شيء .

– ولكن . من كان يتصور . هذه الحمامة الوديعة .

– تكشفت عن نسر لا حدود لقوته .

نزلت من السيارة ونزل .

– لميس . هل نسحب الشكوى ؟

– ليس هذا هو المهم . سنسحب الشكوى ، ولكن الوقت يفر منا . لم يبق إلا يومان وتنتهي فترة قبول واحد من المشاريع المقدمة مع أرضه المناسبة فإن لم نعثر عليه ونقنعه بما نريد فسينهار كل شيء .

وضرب دولاب سيارته بقدمه في غيظ :

– اللعنة كيف استطاعت الامساك بنا بهذه القوة ؟

– دعنا نقدم المشروع ، ونترك للجنة الاستلام اتخاذ القرار بشكل عادي .

– سيرفضون أرضنا ، سيرفضونها ، وسنخسرها ، ونخسر المشروع والدراسات والهدايا التي قدمناهاحتى الآن .

– لو اعرف مكانها فقط .

– لو اعرف مكانها لخنقتها بيدي هاتين .

قال في غيظ ، اتجهت إلى المصعد ولحق بي :

– لميس لن تتركيني الآن . يجب ان نصنع شيئاً .

– وهذا ما أفكر فيه . تعال .

وتبعني إلى بيتي . أضأت النور ، وبدا لي المكان شيئاً بهيجاً ، من الخسارة ان أفقده بعد كل هذه السنين ، اللوحات التي انتقيتها لوحة لوحة ، قطع الأثاث ، التحف الصغيرة ، السجاد ، وورق الجدران .

ــ بيتك جميل .

ولم أجب ، بل اشرت إلى مقعد ليجلس عليه ، فارتمى بهيكله الضخم يتنهد تعباً :

ــ دعينا نفكر في حل .

ــ لا حل يا مالك . يجب ان نساومهم .

ــ غير معقول . خمسون بالمئة ؟

ــ ربما اقتنعت فغيرت النسبة .

ــ شفقة منها ؟

ــ لا تتحدث عن العواطف في موضوع كهذا .

ــ فعم أتحدث إذن ؟

ــ من الغريب ان تنكشف هذه المرأة الناعمة عن هذه اليد الحديدية .

ــ فعلاً .

قال في حزن ثم تابع :

ــ ألديك ما يشرب ؟

ــ سأصنع قهوة .

ــ لا بأس .

مضيت إلى المطبخ لأعد القهوة حين رن الهاتف في المطبخ ، وأدركت أنه يستشير شركاءنا وراودتني نفسي لثانية ان أرفع السماعة اسمع ما يقولون ثم تمالكت نفسي ، وحين عدت بالقهوة كان قد وضع السماعة ، رشف رشفة من فنجانه ، ثم قال :

ــ أحس أني اندفع إلى الجنون .

وقلت قريبة من الانهيار وإن كان هناك جزء في اعماقي يسخر من الامر كله .

ــ انت على حق .

ــ خمسين بالمئة ، خمسين بالمئة ، ولكن هذا رقم كبير ، كبير جداً .

وادركت أنه لم يكن يكلمني ، بل يتابع حواراً جرى على الهاتف ، وفجأة التفت إلي مغيظاً :

ــ لم لا تقولين شيئاً ؟

ـــ أسمعك .

ـــ يجب ان تقولي شيئاً .

ـــ حسن . لم يتبق لنا إلا يومان ، وينتهي كل شيء .

ـــ وحتى لو تقدمنا بمشروعنا الآن ، فلن نتمكن من تمريره لأنا لم نتفق مع احد من لجنة الاستلام .

ـــ كنا نعتمد على رئاسة ادهم للجنة الاستلام .

ـــ قلت لك : ستصيبونني بالجنون ، بالجنون التام لا . لا . قلبي لا يحتمل ان أدفع مثل هذا المبلغ .

ـــ يكفي يا مالك . تمثيل الميلودراما لا يناسبك !

ـــ ماذا ؟ لميس . حتى انت تسخرين مني . ؟

ـــ لا ، ولكن منظرك مع هذا الانفعال . . . .

ـــ حسن . اسخروا كما تشاؤون ، ولكن الخسارة لن تكون من نصيبي فقط . انها خسارتنا جميعاً .

ـــ اعرف ذلك للأسف ، ولكن سيتبقى لنا بعض الفتات ، وسيساعدنا هذا المشروع على الانتقال منه إلى مشاريع اخرى .

ـــ آه .

قالها فجأة في إشراق :

– وسنكسب ادهم إلى جانبنا . سنكسب خبرته الكبيرة واسمه الكبير في بناء المدن . والأهم من ذلك أنا سنكسبه إلى جانبنا . حين يوافق على ارضنا مكاناً لبناء المدينة الضاحية النموذجية .

وتابعت في حزن :

– وسيكون هذا هو المكسب الاكبر .

– كأنك توافقين على الدفع .

– إن عرفت وسيلة اخرى للخلاص من كل هذه الورطة فدلني عليها .

– كأنك تتفقين معهم في الرأي .

– لا اعرف ، ولكني أقترح أن تمضي للقائهم ، وتتفق معهم الاتفاق النهائي .

– على الدفع ؟ لا . لن اجرؤ لن يسامحني الله في سمائه لو فعلت .

– فما رأيهم إذن ؟

واشرت إلى الهاتف .

ـ إنهم يفترضون انا يجب أن نتفاهم معه بأسرع فرصة.

ـ بأي ثمن ؟

ـ بأي ثمن ، وهم يقولون إن كسب ادهم إلى جانبنا يستحق بعض التضحية .

وصمت فقد عرفت ان كل شيء قد انتهى .

ـ سأمضي لالقاهم ، وسأتصل بك لتجدي طريقة للاتصال بأدهم وبها .

ـ انا ؟

ـ طبعاً ، فلن يتصلا بسواك . صدقيني .

ورفعت كتفي في حيرة . من يدري .

ـ على اية حال . لن اغادر البيت ، وسأرى كيف يتصلون .

سمعت صوت إغلاق الباب وخطواته الثقيلة تبتعد ، واخذت أحدق في مكتسبات السنين من حولي .

* * *

— ٣٨ —

اسمع نقراته على الباب ، ولكن . لا . ليس الآن . لن افتح ، يجب ان اتركه ينضج على مهل ، أعرف ان الشرارة التي ارسلتها إليه تفعل فعلها الآن ، وهو لا شك بحاجة إليها لينضج . أعجب لبعض الرجال الحالمين يكبرون وتتقدم بهم السن ويتغضن الجبين ويشيب الفودان ، ومع ذلك فالطفل يستمر حياً فيهم ، يمنع عنهم رؤية الحقيقة ، تعرفها ، معرفة مصلحتهم ، فما معنى غباء التمسك بأن يقول الناس عنك : نظيف ، لا يمد يده إلى شيء وتسعد بهذا ، بينما يعمد الجميع إلى مد ايديهم حتى الآباط يمرحون بالثروات والسيارات والقصور والرحلات ، وتنظر إلى كل هذا في حسد ، ثم لا تستطيع الحصول منه على شيء ، ولماذا ؟ حتى لا يقال إن ادهم النظيف قد تلوث . طظ فلماذا تلاحقني إذن ؟ لماذا تلاحقني بعينيك المتوسلتين إن لم تكن قادراً على دفع الثمن . انا لم اعرض نفسي عليك ، ولماذا

افعل ؟ ومئات خير منك يتمنون نظرة أو كلمة ، لم ألاحقك ، ولم اخدعك ، بل افهمتك الامر بصراحة انا امرأة اعتادت الترف ، وأبي لم يقصر في ذلك ابداً ، وإذا كان القدر قد حرمني منه قبل ان اتزوج ، فهل يعني هذا ان اتنازل عن حقي في الرفاهية ؟ ومن اجل ماذا ؟ من اجل كهل قد تحدد طريقه ، وعرفت نهايته ؟ إنها ليست المغامرة مع شاب مبتدىء واعد لا تعرفين كيف ينتهي ، بل مع كهل قد وصل إلى نهايات طموحه ، وهاهي فرصة العمر لي وله للخروج من دوامة الفقر . الفقر ؟ لا . ليس الفقر ، بل لنقل عدم الوفرة ، ويريد ان يرفضها . لا . لن أمكنه من هذا . من اجل مستقبله على الاقل ، ولكن . كيف . انا اعرف أنه لن يستسلم بسهولة رغم انه يتمنى ان يستسلم ، ولكن هذا النوع من الناس اعرفه ، إنه يتمسك بصخرته التي تغرق معه في عناد ، ويظن انه مبدئي ، ولكنه ببساطة لا يدرك انه إنما يتعلق بعادة قديمة لديه ، تماماً كمدمن الخمرةوالحشيش. ان ادمانه ليس إلا عادة ، أنك إن رجوته او توسلت إليه ليتخلى عن عادته ، فلن يقبل . عليك ان تلاعبيه بهدوء ، تقدمين له البدائل الممتعة ، تخلقين عادات

جديدة تبدو له اشد متعة وبهجة ، تجعلينه يحس بأن عاداته القديمة عبء لا بد من التخلص منها ، وبهذا فقط ترينه ينسحب من عالم ليدخل في عالم بهدوء .

انا اعرف أنه يشتهيني ، وانا اعرف اني استحق ان اشتهى ، وانا اعرف كيف ابدو مشتهاة، وكل ما علي الآن ان اجعله يتقدم خطوة في اتجاهي، وقد قدمت له هذا العرض حين رأينه يتحرك مرتبكاً ونحن نتقدم في اتجاه غرفتي .

كنت اريد ان انقل رغبته فيَّ من رغبة ذهنية إلى رغبة جسدية . كنت ارى عصبيته وسعادته، فها نحن للمرة الاولى وحيدان في فندق في الضواحي حيث لا رقيب ولا دخيل الا إرادتي ، وإرادتي تعرف ما تريد ، ولن تقبل الا بالحصول على ما تريد . كنت اراه يتحرك في عصبية . كنت ارى نظراته وحركات يديه ، كنت انتظر ان يقوم بخطوة ما ، يحاول تقبيلي ، يحاول الدخول إلى غرفتي ، يحاول شيئاً يفيد فيه من هذا الظرف ــ كوننا وحيدين في الفندق ــ ولكنه لم يفعل ، كل ما صنع هو أن كفيه كانتا تنقبضان وتنبسطان في عصبية ، وانه كان ينظر من حوله في خوف طيلة الوقت ، وكأنه العذراء تخاف على عذريتها .

كدنا نصل إلى غرفتينا ولم يفعل شيئاً ، وكدت ادخل إلى غرفتي واتركه يمضي ، وأخسر نهاراً قبل تحقيق الخطة ، ومن يدري ما المفاجآت القادمة ، او ما سيتم خلال هذا اليوم ؟ وكان لا بد ان اصنع شيئاً ، فقررت ان أقوم بالمبادرة .

كان منظراً خيالياً رؤية الجنون في عينيه المفتوحتين غير المصدقتين ، نظرة لن انساها ابداً ، تلكما العينان المفتوحتان المذعورتان غير المصدقتين ثم تحولهما السريع إلى الرجاء والتوسل والفرح والغبطة ، واحسست اني قد أنجزت ما اردت ، فانسحبت اتركه يهضم الفكرة الجديدة .

سمعت طرقاته على الباب ولم افتح ، ولم افتح ؟ تكفيه جرعة واحدة ، يجب ان يهضمها قبل ان انتقل معه إلى الخطوة التالية .

يقولون الفطام صعب ، وعلى الام ان تصدم الطفل مرةواحدةلينتقل من الحب ، إلى الكراهية ، فالفطام . سمعت خطواته ينسحب . انا اعرف كيف يفكر الآن . أعرف أنه يستحلب المتعة التي قدمت له طرفاً منها ، يتخيلني لم استطع كتمان عواطفي فأعلنتها في تقبيله ، يتخيل الخجل

الذي غمرني بعد ان فعلت ، وانسحابي إلى غرفتي وانغلاقي فيها ، يتخيل العالم السعيد الذي سنبنيه معاً ، ولكنه يعرف ايضاً ان لي مطالبي التي لا اتراجع عنها ، وعليه ان يدفع الثمن إن اراد .

اسمع خطواته تتردد أمام الباب ، طرقاته الحجولة الخافتة ، عودته ومضيه ، مراوحته في الممر . هل افتح ؟ لا . دعيه ينضج بهدوء يجب ان يكون مستسلماً تماماً حين افتح . لا ينبغي ان تكون لديه أية إرادة للنقاش ، ينبغي ان يشعر انه لا يضحي ، بل يفعل ما هو مقتنع به ، لا يجب ان اترك له فرصة المعاتبة ، او تحميلي المسؤولية في المستقبل . يجب ان يرجوني القبول به بشروطي .

ها هو يطرق الباب ثانية . انظر إلى الساعة . إنه المساء ، ولا وقت كثيراً امامنا لنضيعه . يجب أن يتم كل شيء اليوم . خطواته تبتعد .

سأفتح الباب ، ولكن . لا بد من إعداد بعض الاشياء قبل ان افتح الباب ، لا بد ان يكون الضغط قوياً حتى لا يفكر في النقاش ابداً .

- ٣٩ -

كنت أتحسس رفيف الفراشة على خدي ، وهجة القمر في ليلة صيف فاترة على عين وسنى ، تفتح الياسمينة في اول الليل ، أبارك قبلتها الخافتة المتسللة إلى الروح .

آه يا كنوز السعادة . أتراها خجلة لما اقدمت عليه ؟ أتراها ندمت ؟ اتراني استحق كل هذه السعادة ؟ .

ولكنها في غرفتها مغلقة الباب ، ملتفة بالأستار ، طرقت عليها الباب اكثر من مرة ، هتفت لها بالهاتف الداخلي ، ولكنها كانت تضع السماعة حالما تسمع صوتي . كيف افعل ؟ كيف افعل ؟

الوعد بالسعادة شيء رائع ، ولكن . هل تستحق هذه السعادة ؟ لقد وضعت شروطها يا أدهم . إنها ابنة الرفاه والبهجة . فهل تستطيع ان تقدمها لها ، لقد قالت كل ما لديها ، ووقف راتبك المحدود خجلاً أمام ما تطلب ،

ولكن . . . . لا . . . لا اجرؤ حتى على التفكير في هذا الامر . كيف افعل ؟ هل انسى مدينتي الجميلة بشوارعها النظيفة المستقيمة وبيوتها الانيقة وحدائقها الواسعة واطفالها السعداء وعشاقها البهجين لأوافق على بناء مدينة فاسدة ، الله وحده يعلم كم ستصمد للعواصف والزمن ، مدينة مسروقة الاساسات، فاسدة الجدران وسخة الشوارع ، تعيسة السكان . لا . سيلعنني كل اولئك الذين لم يكلفوا خاطرهم حتى عناء القدوم لتحيتك ، للوقوف إلى جانبك لاعلان انك صاحب المدينة المسروقة .

هذا الزمن يا ادهم ليس لهم ، ربما سيأتي زمن آخر سيكون لهم ، ولكن . ليس هذا هو الزمن . حسن . أفلا نبقي للقادمين إذن ذكرى شمعة اتقدت مرة في الظلام يحيونها ويرونها القدوة .

وأنت . أنت . ماذا ستفيد من هذا بعد موتك ؟ ماذا ستفيد من الذكرى بعد ان تحيا حياة باردة تعيسة سوداء ، دون حوراء .

حوراء ؟ ورفت الفراشة ، وتفتح الياسمين ، وتحركت وقدة في القلب .

حوراء . احاول ثانية . اطرق الباب . ينفتح . كانت تجلس على كرسيها ، وكانت عيناها حمراوين . كانت تبكي .

– حوراء . حوراء . ما الذي يبكيك ؟

– انا آسفة يا ادهم ، آسفة – وارتمت على كتفي ، وانتقلت حرارة الدموع إلى رقبتي – انا آسفة أني أدخل الحزن على قلبك ، انا آسفة أني اثقل بهمومي الكثيرة عليك .

– حوراء . حوراء . لا تقولي هذا .

وأحسستني اشرق بدموعي ايضاً .

– انا تافهة ضعيفة ، اعرف ذلك ، لقد هتفت لصاحب الفندق كي يأتيني بسيارة ، فسأمضي . حسن أنك قدمت فقد كنت لا اعرف كيف امضي دون وداعك .

– إلى اين ؟

– سأعود إلى بيتي .

– ولكن . لماذا ؟

– سأتركك تختار طريقك بنفسك . لا اريد ان اتدخل في هذا ، انا اعرف انك ستفكر في أني اضغط عليك لتشترك معهم في مشروعهم ولكن . لا . سأعود إلى بيتي ، وسأعلن للميس ألا علاقة لي بالامر نهائياً .

ـ حوراء .

ـ لا . انا ماضية .

وصرخت في غضب لاول مرة :

ـ حوراء . اصمتي .

ـ لا يا ادهم . انا اعرف أنك ستفكر في أني حين عرضت لك حبي للمتع والرفاهية ، وحين ذكرتك بأن راتبك لا يكفيني ، وحين ذكرت لك الرقم الذي سيربحونه من هذه الصفقة التي كانوا سيمررونها من بين اصابعنا دون علمنا . . . . .

ـ حوراء .

ـ لا . اريد ان أبرىء ضميري . انا ماضية إلى بيتي . سأقدم طلباً للاستيداع وسأسافر إلى الخارج. لن اتزوج منك الآن ، وارجو ألا يرى احدنا الآخر افترة حتى تهدأ النفوس ، ويفكر كل منا دون ضغط من الآخر .

وصدمتني الفكرة . طلب استيداع ؟ سفر ، عدم رؤية أي منا الآخر ، ضياع كل شيء ، ولكن لماذا ؟ .

ـ ولكن . حوراء . لم كل هذا ؟

– لا اريدك ان تقول في المستقبل إني ضغطت عليك حتى تشارك في مشروعهم ، وتربح مبلغاً كبيراً نستطيع بدء حياة مرفهة به .

– حوراء ، ولكن هذا كله ليس ضرورياً . نستطيع تدبير امورنا دون كثير نفقة .

– أرأيت ؟ ستقول في المستقبل انها رفضت الزواج مني إلا إذا اشتركت في مشروعهم ، وستحملني المسؤولية .

وانتصبت واقفة :

– انا آسفة يا ادهم ، كانت اياماً جميلة تلك التي عرفتك فيها .

– حوراء .

ومدت كفها تصافحني :

– أشكرك ، أشكرك على كل تلك الاوقات الحلوة التي جعلتني أحس فيها شيئاً من السعادة .

– حوراء . سأجن . يكفي .

– لماذا يا حبيبي .

ورنت (حبيبي) في ظلام حياتي ، فأشرقت ، ووجدتني دون حول او طول امامها .

ـ حوراء . سأفعل أي شيء لإسعادك أرجوك ألا تمضي .

ـ لا اريد ان تشعر أني ضغطت عليك ، أريدك أن تتخذ قرارك حراً .

ـ قراري حر تماماً . سأقدم لك السعادة التي تريدين .

وضحكت ، فأشرق القلب .

ـ وسنقضي شهر العسل في سويسرة ؟

ـ سنقضيه في أي مكان أردت .

وارتمت تعانقني ، واختلط الفرح بالبهجة بحزن غامض يعتصر القلب ، وفجأة انتزعت نفسها مني :

ـ سأهتف لها ما رأيك ؟

وأحنيت رأسي في استسلام :

ـ لا بأس .

ـ فامض إلى غرفتك إذن . سألحق بك .

ـ ٤٠ ـ

كان مالك على حق ، وكنت على حق حين مكثت في البيت ليرن الهاتف وارفع السماعة ، وتكون حوراء على الطرف الآخر ، وقالتها مباشرة :

ـ يومان يا لميس ، وتخسرون كل شيء ، ستصبح الأرض بلا ثمن ، وستخسرون كل ما دفعتم لدراساتكم و . . . . . . هداياكم وارضكم العظيمة .

ـ أين أنت ؟

ـ هذا غير مهم .

ـ اين ادهم ؟

ـ هذا لا يعنيك . انا وادهم قررنا الزواج .

ويغص القلب ، ولم أستطع إلا أن أردد :

ـ قررتما اخيراً ؟

ـ أفلا تباركين لي ؟

— مبروك .

— وسنسافر غداً إلى الخارج !

— ولكن . والمشروع والضاحية النموذجية ؟

— لديه عشرة عروض تكفي للبدء في المناقصة ، وسيؤجل البت فيها حتى يعود من شهر العسل !

شهر العسل ؟ آه . هذا ما جلبته انفسي ، ثم تذكرت .

— وعرضنا ؟

— إذ تبقى وقت ، فلربما استلمته اللجنة ، ومن يدري .

— ولكن . . . . .

— بالمناسبة . أتوصين على شيء من اوربة ؟

وصرخت ، فلم اعد احتمل مناكدتها :

— لا . لن تسافرا .

وقالت في براءة :

— ولم لا ؟

— لا . لا يجوز . هذا حرام — وشبه باكية أضفت — ستخربون بيوت كثيرين في انسحابكما بهذه الطريقة .

— ألديك نصيحة ما ؟

– حوراء . لا تكوني شديدة القسوة . أفهم هذه المناورة كلها . ضعي شروطك.

– وضعتها سابقاً ، ورفضت .

– لم نرفض ، بل جئنا للتفاوض .

– هاه . لميس . لنلعب بورق مكشوف . ماللك استدعى اصدقاءه . اهذا صحيح ؟

– دعينا من هذا الآن .

– حسن ، ربما مررنا غداً على دمشق في طريقنا إلى المطار .

– حوراء . ما هذه (الربما) يجب ان نتفق .

– شروط الاتفاق واضحة يا لميس .

ورن جرس الباب :

– هناك احد بالباب . سأفتح له . ما رقمك حتى أتصل بك ؟

– لا . سأتصل بك بعد ربع ساعة .

– حسن .

وعبس شيطان شرير في اعماقي . هذه المرأة ذكية ، ذكية بشكل مخيف ، أعتقد أنا لا نستطيع الا الرضوخ .

فتحت ، وكان مالك .

ـ هل اتصلوا ؟

ـ قدومك اوقف المكالمة .

ـ اتصلي بها ثانية ، نحن على استعداد لتنفيذ كل ما يطلبون ، نحن سائرون إلى الخراب .

ـ سيسافران إلى اوربة لقضاء شهر العسل .

ـ يسافران ؟ متى ؟

ـ غداً .

ـ اللعنة ، ولكنها مناورة . أليست كذلك ؟

ـ ربما ، وربما لم تكن مناورة ، لا نستطيع الرهان .

ـ صحيح . أوراقنا كلها مكشوفة . يجب ان نقبل كل شروطهم . اتصلت ببقية الشركاء .

ـ ووافقوا ؟

ـ وافقوا ، اتصلي بها للاتفاق على مكان اللقاء وتوقيع العقد .

ـــ لا أعرف كيف اتصل بها .

ـــ كيف ؟

ـــ هي التي ستتصل ، رفضت إعطاءنا رقم هاتفها .

ـــ هه هه هه .

قهقهه في مرارة ثم تابع .

ـــ لم أعتقد للحظة واحدة أن لديها كل هذا الذكاء .

ـــ علينا ان نقبل بظروفنا .

قلت في استسلام . ورن الهاتف ثانية . رفعت السماعة وكانت حوراء .

ـــ هه . هل جاء مالك ؟

ـــ إنه إلى جانبي .

ـــ خمسين بالمئة ؟

ـــ خمسين بالمئة .

ـــ دعيه يتكلم معي .

وأشرت إليه ، فأخذ السماعة ، وبسرعة دبقة قال :

ـــ أين ؟ أين هذا الصوت الجميل . اشتقنا إليك .

ورأيت صدمة على وجهه . لم اعرف جوابها ، ولكني أدركته حين تأتأ :

– حسن . حسن . نحن على استعداد .

– . . . .

– نعم . نعم . خمسون بالمئة ، لكن . كيف ؟

تريدين لميس ؟ حسن .

وأعطاني السماعة :

– لميس . أرجوك . الحديث معك أكثر راحة . اتفقي معه على الموعد .

التفت إلى مالك أشرح له الامر ، فرأيت المرارة والحقد على وجهه ولا بد أنه رأى شيئاً مماثلاً على وجهي : فقال وهو يهز رأسه في استسلام .

– اليوم مساء .

أخبرتها بالموعد .

– حسن . سنلتقي على باب مقصف الفردوس لنتفق على كل شيء نهائياً وسوف يداوم في الوزارة غداً ليستلم مشروعكم وخريطة الارض التي اخترتموها .

– لا بأس .

وقطعت المكالمة دون مزيد من الحديث . استندت إلى ظهر المقعد ، ونظرت إلى ماالك بعينين ميتتين لا أفهم ما جرى ، وما يجري ، وما سيجري ، ولكن كل ما أعرفه أن أدهم ، أدهم الحلم ، أدهم المدينة الحلم . أدهم الصبا ، أدهم الشوارع المستقيمة النظيفة ، ادهم المدارس الحنونة ، أدهم الاطفال موردي الحدود ، ادهم المكتبات والنوادي والأمل قد انتهى ، ليحل محله أدهم جديد سيأتي إلينا مساء عند باب مقصف الفردوس ليأخذ حصته من غنائم مدينتنا الجديدة .

١٧ / ٥ / ١٩٨٢

٣٠٠٠ ط١ / ١ / ١٩٨٥

سعر النسخة
١٠ ل.س.

مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٥